

# الكنائس الأولى

الهلالية في التاريخ

obeykandl.com

# الباب الأول

## في العصر الجاهلي

اصطلاح أكثر الناس على أن يفهموا من « الجاهلية » ما يقابل المعرفة ، وهو معنى يغلب عليه النظر الديني ، ولكننا نميل إلى إعادة مدلوله من المعنى الاصطلاحي إلى المعنى اللغوي الأول ، ونفهم منه ما يقابل الحلم لا ما يقابل العلم ، أي ما غلظ وما خشن وما قسا<sup>(١)</sup> . ومن ثم فهو يدل على نوع من الحياة أو طور من الثقافة تغلب عليه الخشونة وشظف العيش .

ولا يزيد أن تقبيل في تحديد هذه الفترة ، كما فعل القدماء ، فنجعل الأنبياء معالمها ، ونذهب إلى أنها كانت فيما بين آدم ونوح<sup>(٢)</sup> ، أو بين نوح وإدريس<sup>(٣)</sup> . أو نوح وإبراهيم ، أو ما بين موسى وعيسى ، أو ما بين عيسى ومحمد<sup>(٤)</sup> . ذلك لأننا نقصر بحثنا على الجاهلية العربية دون سواها ، بل على جاهلية فريق بعينه من الأمة العربية ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأن الجاهلية هي الفترة التي سبقت الحضارة مباشرة ، ولا جناح علينا في أن نجعل خاتمها هي الدخول في الإسلام عندما تداعت القبائل العربية إلى الوحدة الشاملة وكونت أو كادت تكون أمة ذات مقومات متجانسة ، وإن احتفظت ببعض عناصرها بآثار من العهد القديم .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « جاهلية » ( الترجمة العربية ) .

(٢) الآلوسي ، بلوغ الأرب ج ١ ص ١٥

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٨٣

(٤) الآلوسي ، بلوغ الأرب ج ١ ص ١٥

وسواء عندنا أصحت هذه الأنساب التي تجمع أو تفرق بين الأسر والعشائر والقبائل العربية في الأصل الجاهلي أم لم تصح ، فإن الذي لاشك فيه أن فكرة الأصل المشترك لكل جماعة عربية ، كبرت أو صغرت ، هي التي كانت تصوغ حياتها وتكيف تاريخها وتعلم أيامها في حدود الضرورة الطبيعية التي تدفع الناس إلى الاجتماع على مدافعة الشر أو الافتراق على الاستئثار بالخير . وكلما استفحل الخطب واشتدت المنازلة طلبوا أصلاً أبعد من أصلهم القريب يجمع ما تفرق من أشقاتهم ويقوى ما انفصم من أحلافهم .

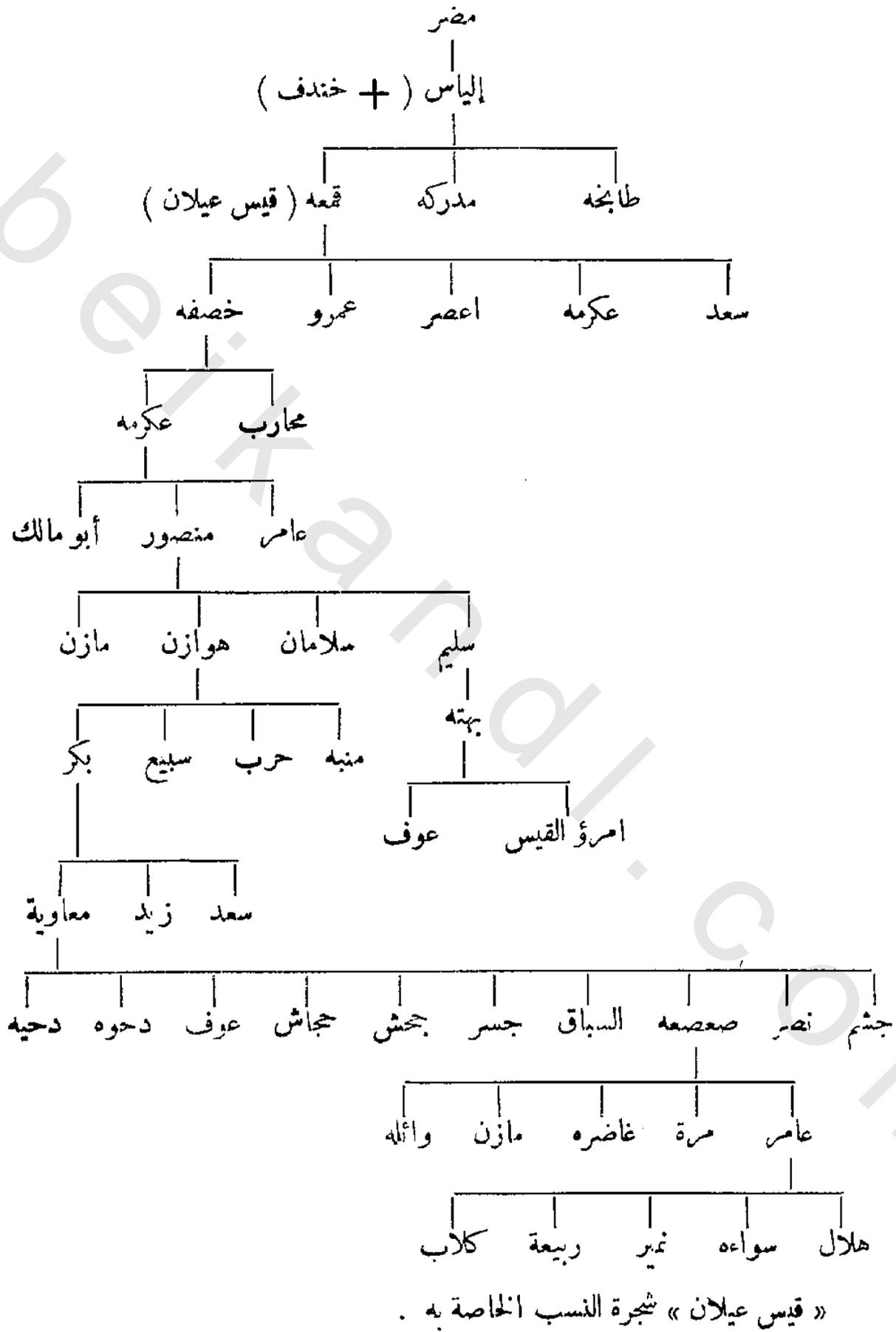
ولم يكن الهلالية الذين عرفوا في التاريخ ، وكان لهم هذا الأثر القوي في كل بقعة حلوا فيها ، قبيلة واحدة يجمعها أب واحد ، وإن غلب عليها « هلال » ، وإنما كانوا أخلاطاً من القبائل بينهم « سليم » الذين لا تقل شهرتهم عن الهلالية إن لم تزد ، والذين لا يمكن أن يذكر الهلالية دون أن يذكرها<sup>(١)</sup> ، ومنهم غير أولئك وهؤلاء ممن يجتمعون وإياهم على أصل عريق ، هو « قيس عيلان » كانوا يتعارفون باسمه ويتنادون باسمه ويستغيث بعضهم ببعض باسمه أيضاً .

ولسنا نستطيع أن نتعرف على هؤلاء الهلالية ومن حالفوا ، إلا إذا بدأنا من هذا الأصل المشترك الذي كانوا يؤمنون باتحادهم جميعاً منه ، والذي كانوا كلما تفرقت كلمتهم أو تناهت ديارهم التمسوا الوحدة فيه . ولا يعني الباحث أن يؤمن معهم بهذا الأصل المشترك أو أن يشك مع العلماء المحدثين فيه ، ما داموا قد وجدوا أنفسهم عليه وتصرفوا في حياتهم على هديه والاستمسك به .

ولنبداً إذن البحث بـقيس عيلان ، وما يعيننا بطبيعة الحال أن نوفق أو نفرق بين قيس عيلان أو قيس عيلانه أو قيس بن عيلان<sup>(٢)</sup> ودلالة هذا أو ذاك

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ط بولاق ، ج ٦ ص ١٢ وما بعدها .

(٢) ابن دريد ، الاشتقاق ، طبعة فستقلد ص ١٦٢ ؛ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٥ .



على التذكير أو التأنيث وأهميته في علم الانسان ولكن الذي يعنيننا ، وهو ما يكاد يكون من المجمع عليه عند القدماء ، أن عرب الشمال كلهم ، أو بعبارة أدق ، أن مضر كلها ترجع إلى أصليين اثنين هما : خندف ، وقيس عيلان<sup>(١)</sup> ، ونحن نضرب صفحا عما يقال عن خندف من أنها زوج إلياس أو غير زوجه ، وأن ولد إلياس جميعا إنما يرجعون إليها حتى عرفوا بها ، وقيس عيلان في المشهور هو قعه بن إلياس ابن مضر<sup>(٢)</sup> .

وقيس عيلان كسائر الأسماء التي تطالعنا بها كتب الأناساب أو روايات الأيام ، لا يمكن أن نستخلص له شخصية مستقلة قائمة برأسمها لها ملامح نفسية واضحة الدلالة عليه . وكل ما يستخلص من هذه الأعلام دلالتها على جمع من الناس يربط بينهم اعتقاد راسخ بالانحدار من صلبه والاشتراك في القرابة عن طريقه . أما ولده — كما تذهب إلى ذلك الروايات — فهم سعد وعكرمة وأعصر وعمرو وخصفه . وبعض النساب يزعم أن عكرمة هو ابن خصفه . وأعصر هو ابن سعد<sup>(٣)</sup> .

وإذا تتبعنا شجرة النسب التي تعنيننا في موضوعنا بخاصة ، فأننا نجد أن خصفه أنجب رجلين هما : محارب وعكرمة . وذكر بعض النساب أن عكرمة هو ابن قيس وليس ابن خصفه . ومن ولد عكرمة هذا ، منصور الذي نستطيع أن نعده الأصل المشترك الثاني للهلالية لأن منه هوازن وسليم اللذين يجمعان بطون الهلالية أو أكثر بطونهم .

وسليم عنصر من أقوى عناصر الهلالية ، وإن كان إطلاق الهلالية عليهم توسعاً ومجازاً ، لأن سليماً أعرق من هلال ، كما أنهم كانوا من أغنى القبائل العربية مالا

(١) ابن قتيبة : المعارف ( القاهرة ١٣٥٣ ) ص ٣٠ ؛ الظهري ج ٢ ص ١٢٩٨ ، ١٩٢٩

(٢) ابن قتيبة : المصدر المذكور ص ٣٠

(٣) المصدر السابق ص ٣٦

وأخصبهم أرضاً وأوفرهم عدداً . ومن قبائل سليم بنو حزم وبنو خفاف وممالك ورعل  
وذكوان ومطروود ويهد وقنفذ ورماعة وعصية وطفرة وبجده وحبيب بن مالك  
وبنو الشريد وبنو قتيبة<sup>(١)</sup> . وقد خرجت بجده من بني سليم وصارت في بني عقيل .  
ويذكر المعنيون بالأدب وتاريخه ، بني الشريد وهم بيت من سليم ، لأنه أنجب  
الخنساء أشهر شواعر العرب الجاهلية .

وقد أثر عن هوازن أخى سليم ، أن ولده أربعة هم : بكر وسبيع وحرب ومنبه .  
ولا عقب لسبيع وحرب على المشهور . ويعنيان من الاثنين الباقيين بكر لأنه أعقب  
سعداً وزيداً ومعاوية . وتذكر الروايات أن معاوية قتل أخاه زيداً ، وهو أول من  
فدى بالابل . وكان معاوية بن بكر كثير الولد ، ولكن أشهر أبنائه هو صعصعة ،  
ولعل شهرته ترجع إلى ابنه عامر<sup>(٢)</sup> .

وقلما يظهر اسم عامر بن صعصعة بالقياس إلى غيره علماء على قبيلة قاطمة برأسها ،  
ولكنه يظهر بصفة عامة علماء على عدد من القبائل تنسب إلى مجموع هوازن .  
ومن عامر . مرة وغادرة ومازن ووائله وسلوب وكلاب ونمير وقشير وربيعة وسواء  
وعقيل<sup>(٣)</sup> . ويتفاوت مكانهم من الأصل العامري المشترك قوة وضعفاً ، وأخص  
من يذكر من ولد عامر ، « هلال » الذى عرفت باسمه سائر القبائل التى هزت  
الدول الإسلامية فيما بعد هزاً عنيفاً ، وغيرت من أوضاعها ، وقوضت بعض نظمها  
وتقاليدها .

وهذه الأنساب على ما ترى عبارة عن حلقات قليلة غير مرتبطة فى سلسلة  
قصيرة لا يمكن أن تدل على سياق زمنى متصل أو على فترة تاريخية معينة ، كما أنها

(١) ابن قتيبة : المصدر المذكور ص ٣٨

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ . تصحیح القوم : تفرقوا ؛ ابن دريد . الاشتقاق ص ١٤٧  
والصعصعة هى الحركة ، الجلبة ؛ لسان العرب ج ١٠ ص ٦٧

(٣) ابن دريد : الاشتقاق ط فستنقلد ١٨٥٤ ص ١٧٨ ؛ ابن قتيبة المصدر المذكور ص ٣٩

لا تعطينا صورة صادقة أو مقاربة لمشخصات هؤلاء الأعراب الجماعية فبعضها يشير — كما يذهب إلى ذلك بعض علماء الأنساب — إلى حقيقة الأمومة المتوغلة في القدم، وبعضها يشير إلى كائنات طوطمية غير ذات وضوح<sup>(١)</sup>. وربما كانت كذلك في الأصل. ولكنها في الفترة التي نحن بسبيلها لا تدل على شيء له قيمته، فأسماء النجوم والكواكب مثل « هلال » موجودة في قيس وجودها في غيرها، بل هي موجودة في العرب النزارية وجودها في القحطانية وأسماء الحيوان وصفاتها من هوازن<sup>(٢)</sup> وكلاب شائعة بين القبائل العربية جماء. فلننتقل إذن مسرعين إلى البيئة المكانية نلتبس فيها بعض المشخصات الواضحة المؤثرة في حياة هذه الجماعات والتي تطبعمهم بطابعها القوي الذي لا يخلصون منه حتى ولو فارقوها أمداً غير قصير.

ويكاد يكون من المتعذر أن نحدد ديار كل مجموع من القبائل على وجه التحقيق الدقيق، ذلك لأن قانون الحياة البدوية في الجزيرة العربية كثيراً ما كان يضطر القبائل إلى الارتحال من مواطنها وانتجاع مواطن أخرى. ولم تكن هجرة هؤلاء البدو دائماً أبداً كهجرة الطير في مواسم طبيعية بعينها من موضع بعينه إلى موضع بعينه والعودة إلى الموضع الأول وهكذا... فكثيراً ما تجاوزوا طلب الغيث وانتجاع الكلال وتقطعت بهم — عامدين أو غير عامدين — أسباب العودة إلى ديارهم الأولى. ومن ثم اتسعت الدائرة على الباحث في نجوع هذه القبائل ومنازلها واختلطت الروايات عليه، وليس من سبيل يصل فيه إلى شيء راجح إلا بتتبع مختلف الروايات تتبعه للأنساب سواء بسواء.

وتتشعب المسالك على الباحث في ديار قيس، فان القصص تزعم أن موطن قيس الأصلي هو « تهامه »<sup>(٣)</sup>، ثم انتشروا في العصر الجاهلي، وأن لم يكن ذلك قبل

(١) محمد عبد المعيد خان، الاساطير العربية قبل الاسلام، القاهرة ١٩٣٧م ص ٦١ وما بعدها.

(٢) الهوزن: اسم طائر والجمع هوازن. ابن دريد الاشتقاق طبعة فستيفلد ١٨٥٤ ص ١٧٧

(٣) البكري، طبعة فستيفلد ص ٥٧، ياقوت، مادة تهامه ج ١ ص ٤٦٣ وما بعدها.

قبل الاسلام بأمد طويل في رقعة متسعة من الأرض أواسط الجزيرة العربية وشمالها . وأقامت جماعات منهم في الشمال الشرقي والجنوب الشرقي من مكة . وتفرقت أخرى في مشارف نجد ومواقع من الحجاز واليمامة . وبلغوا البحرين وشاركوا في مملكة الخيرة اللخمية ووصلوا إلى العراق <sup>(١)</sup> .

وتضييق الرقعة قليلا عند ما تنظر في منازل سليم ، فقد انتشروا على حدود نجد والحجاز ، تناخهم من ناحية الشمال المدينة ومن الجنوب مكة . وكان إلى شرقهم ديار بني عمومتهم من القيسية . وظلوا في مواضعهم هذه لغناها ، ففيها نجد بركانية كثيرة المناجم وتلال معشوشة وواحات نضرة . ومن أشهر مواضعهم : الريدة وقران ومعدن البرم ، وصفينه ، والسوارقيه ، وذوسويس عصنان واله ، والصليب ، وعماية وقلاح ، والأباتر ، وجواد ( وهو موضع رمل ) والعرجاء شوان ، وكفف . وتطيب في أراضيهم أشجار الفاكهة من نخيل وموز ورمال . ومن دلائل النعمة فيهم خيلهم الفاراهة وقد كانوا يتحكمون في الطريق إلى المدينة وشعاب نجد والسبيل المؤدية إلى الخليج الفارسي ، حتى آثر يهود المدينة وتجار مكة ومن إليهم ، التحالف معهم طوال العصر الجاهلي تقريبا . وكثير من أسماء المواضع التي يتألف منها موطن سليم مركبة يدخلها لفظ « معدن » إشارة إلى وفرة المناجم فيها وبخاصة مناجم الذهب والنفضة في العقيق والمخيرة وغيرها .

وقد تفرقت هوازن في نجد على حدود اليمن وشرقي الحجاز بالقرب من مكة .

ومن المواضع التي تنسب إليهم : أملاح وعدس المطاحل والدردا والنضبعان وفيف الفحلين وفيف الریح .

ومن أوديتهم : أوطاس ولبيه .

(١) الطبري ج ١ ص ١٩٦٨ ؛ المسعودي طبعة بريه ده مانير . سروج الذهب ج ٥ ص ٦٥

ومن مياهم : ذو الحليفة وريان أو ثمان .

ومن جبالهم : المضح .

وكان بنو عامر ناحية الشمال جيران قبائل أخرى من هوازن وسليم وانتشروا في اليمامة . وكانوا إلى الجنوب جيران ثقيف وبلغوا تلاميذ بل ونجران . وبلغوا أيضا البحر الأحمر ناحية الغرب .

وكانت منازلهم تنسب بصفة عامة إلى بني عامر دون تحديد لمواقع كل قبيلة .

ومن أوديتهم : يدى ودارا وركبة .

ومن مياهم : الجف وأمره والنسار .

ومن جبالهم : غارمة والعس وجبلة وقبائل والمذنب ونيل وواسط وجراح .

أما بنو هلال فكانوا كأحلافهم يعيشون في نجد على حدود اليمن أيضا ومن منازلهم . العباء وبرىك ودوس والفتق والقريجة وغروش وصران ( وهي مدينة عامرة كثيرة الآبار يوجد فيها النخيل ويطيب القمح ) وصريجة أو صريجة وعكاظ ( التي غالبوا عليها فيما بعد ) .

ومن أوديتهم : جلدان وزبيبة ( وقيل رنية ) وتربه بالقرب من مكة وهي غاية في الخصب ويشاركهم فيها ضباب وعامر بن ربيعة .

ومن جبالهم : بين ( مع بحيرة النقع ) والقفاويشة .

وانتشرت هذه المنازل متفرقة متناثرة وقد تحكمت في وجودها الظروف الطبيعية من بئر تستخرج منها المياه الجوفية سقياً ورياً ، إلى واد خصيب ينبت البكلاً ، ومن واحة مشجرة إلى منجم يلتمس فيه الذهب والفضة ، تكتنفها المغاور من كل مكان وتقطعها البوادي عن يمين وعن شمال .

ونحن على الرغم من هذا العرض نجد شيئاً من العسر في استخلاص الشخصيات البيئية التي تفرق بين الجماعات وتكسب كل جماعة صفات بارزة تدل عليها . ذلك لأن المظاهر الطبيعية في ديار الأعراب تكاد تكون راتبة متشابهة ، ومنازل كل قبيلة أو مجموع من القبائل تماثل إلى حد كبير منازل غيرها . وهم إن اختلفوا قائما يختلفون باختلاف النجد والغور والساحل على كثرة النقلة وتداخل الجماعات وصغر الفترة التي ظهروا فيها ، ولكننا نستطيع إذا أمعنا النظر أن نلاحظ أن ثمة بقعة موحدة الخصائص — بالقياس إلى غيرها مما يجاورها — هي التي تتكاثف فيها ديار القيسية وبخاصة سليم وهوازن ، وفيها عامر وهلال .

وهذه البقعة هي التي تتردد كثيراً كلما ذكرت هذه القبائل مجموعة أو مفردة وهي التي تعرف باسم نجد . ولكننا يجب أن نحتاط في إطلاق الاسم لأن دلالاته اللغوية القديمة جعلته يدل على كل مرتفع من الأرض في مقابل السهل أو البسيط ، كما أن دلالاته الفنية في الاصطلاح الطبوغرافي جد مختلفة اختلاف المؤلفين . فأنت ترى الاصطخري وابن حوقل<sup>(١)</sup> يقولان إن نجداً يتألف جزؤها العلوي من تهامة واليمن . والسفلى من الشام والعراق . أو بعبارة أخرى الجزء الممتد من بلاد العرب بين اليمامة والمدينة . والذي يخترق الصحراء من البصرة إلى الخليج الفارسي . وابن خرداذبة<sup>(٢)</sup> يذهب إلى أن نجداً تنسحب على جميع البقاع بين العراق (المديب) وذات عرق . وقدامة<sup>(٣)</sup> يقرر أنها الأرض الممتدة من العراق إلى تهامة ، أما الباهلي<sup>(٤)</sup> فيذكر أنها الأرض التي تمتد خاف ما يعرف بخندق كسرى إلى الحرة .

(١) الاصطخري في المكتبة الجغرافية العرب ج ١ ص ١٤ — ٢٦ : ابن حوقل ج ٢ ص ١٨

(٢) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ج ٦ ص ١٢

(٣) قدامة : كتاب الحراج المكتبة الجغرافية العربية ج ٦ ص ٢٤٨

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٣ وما بعدها .

في حين أن الأصمعي<sup>(١)</sup> يحددها بأنها الأرض الممتدة بين منخفضي وادي الرمة ومنحدرات عرق .

ويجب كذلك أن نحتز من هذه الأعلام الجغرافية المركبة التي يدخل فيها اسم نجد ، لأن دلالتها أضيق مما يزيد ، فنغض الطرف عما أورده الأصمعي<sup>(٢)</sup> عن نجد بقرق ( في اليمامة ) ونجد عفر ونجد كبكب ( بالقرب من عرفات ) ونجد صربع ( في اليمن ) وما ذكره البكري<sup>(٣)</sup> عن نجد اليمن وما أضافه ياقوت<sup>(٤)</sup> كنجد الحجاز ونجد ألوذ ( في ديار هذيل ) ونجد الشرا . وما عدده الهمداني<sup>(٥)</sup> من نجد حمير ونجد مذحج وما إلى هذا السبيل .

ومن الخير أن نلتفت التفاتة خاصة إلى ما ذهب إليه الهمداني من تقسيم الهضبة العربية إلى « النجد » أو بعبارة أخرى ، نجد العليا وهي التي كانت تضم في أيامه كورة جرش وبليدة يميم<sup>(٦)</sup> وأرض نجد أو نجد السفلى وهي التي تؤلف مع الحجاز والعروض أواسط الجزيرة العربية<sup>(٧)</sup> وهي التي تعيننا في بحثنا هذا بخاصة .

وأرض نجد هذه جزء من الهضبة الصحراوية تتألف من الأحجار الأولية تغمرها الرمال وتكتنفها جبال بركانية . أما مظهرها العام فبين السهل الأخضر والجبل الأجرد والبادية الصفراء . وليست بها أنهار بالمعنى الصحيح . فهي تعتمد

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٣ وما بعدها .

(٢) ياقوت ج ٤ ص ٧٤٥

(٣) البكري . المعجم طبعة فيسنتفلد ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ ج ٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٥٧٤ ،

٦٢٧ ، ٦٣٧

(٤) ياقوت . المعجم ، طبعة فيسنتفلد ج ٦ ص ٧٣٨ ، ٧٤٥ — ٧٥١

(٥) الهمداني . صفة جزيرة العرب طبعة مولر ، ليدن ١٨٨٤ — ١٨٩١ ص ١٥٥

(٦) الهمداني . المصدر السابق ص ١ وما بعدها و ٣٦ وما بعدها .

(٧) المصدر السابق : الموضع نفسه .

في معظم وجودها على المياه الجوفية تستخرج من العيون التي يتراوح عمقها بين عشرين  
وثمانين قدماً . وقد تنبطح هذه العيون فتشبه بالمسابل والأنهار . وقد تجف أو تقور  
في مجرى أسفل فتعرض الحياة حولها إلى التآف والهلكة ، إلا أن يفر القادر  
على الحركة إلى مكان تستطيع فيه الإقامة ولو إلى حين . ومن ثم اعتمد الأحياء  
في هذه الأرض على مطر الصيف والشتاء ، ويعرف أهلها بلوسمي ، وهو الذي يبعث  
الحياة في المروج والمراعي صهرها القيظ ، ويزود الثاني اليابسة بنضارة الربيع .  
ويفسر هذا ، الكلام المأثور : « سقى الله نجداً من ربيع وصيف (١) » .

وكان في أرض نجد غاب مشجر مشهور كغاب شربه (جنوبي وادي الرمة)  
ووجره وغيرها . ولعل الجفاف والسيول قد أتيا على معظمها وجوها قلب ، يبرد  
إلى الجد في الشتاء ويسخن إلى حد لا تكاد تطيقه الحياة في الصيف .

هذه البيئة الطبيعية المادية قد طبعت أولئك النجديين من هلالية وغير هلالية ،  
يطابعها فجعلتهم كاستهم أدنى إلى الجبليين بسطة جسم وصلابة عود وقوة شكيمة ،  
إلى كثير من الاستعلاء والنزوع إلى الاعتداء ، مع قدرة على الحرمان وخصوبة  
في الانجاب . ايست فيهم سهولة أهل البسيط من الأرض ولا ين جانبهم ولا دماثة  
خلتهم ، وهم قلما يعرفون الوطنية معرفة المستقر الأمن صاحب التراث المسكين .  
وهم أهل عاطفة تستبد بهم السورة إذا اعتقدوا في شيء تشبثوا به آخر العمر ، وتشددوا  
في الدفاع عنه ، وطلبوا إلى غيرهم أن يمتدوا فيه راغبين .

ومن اليسير أن نلم بسيرة أهل الوبر هؤلاء ، لأنهم كانوا يعيشون في مرحلة  
ثقافية لما تبلغ الحضارة التي عهدناها في الأمم القديمة ، وكانوا متفرقين عشائر وقبائل  
وأحلافاً أساسها الأسرة . وقد لونت ظروفهم الطبيعية حياتهم وجعلت تاريخهم

يقوم كله أو أكثره على الصراع بينهم وبين الطبيعة . وهذه المرحلة الثقافية هي التي يعرفها العلماء بالمرحلة الرعوية التي انتهى فيها الإنسان من تأليف الأنعام واستئناسها والاعتماد عليها في جميع شئونه .

وإن نظرة واحدة إلى حركات هذه الوحدات الاجتماعية تفسر هذه الظاهرة وتجعل حياة أولئك البدو أدخل في علم الإنسان منها في علم التاريخ الذي يحتفل أكثر ما يحتفل بالحضارات التي أقامتها أم متاسكة وخلفت آثاراً تدل على أوضاعها ونظمها ودواوين تسجل أيامها وحوادثها .

أما أيام العرب التي انتقلت بالرواية الشفوية قبل التدوين والتي حفظت حروب هذه القبائل فإنها جد كثيرة وأغلبها يتحدث عن معارك ومناوشات قليلة الأهمية بالقياس إلى ما كان يقوم بين الأمم القديمة من حروب ، وكانت تدور في جهاتها على التناحر على البقاء بصورة من الصور .

وينبغي على الباحث في أيام العرب أن يصطنع الحيلة ، فقد تضاعف عددها ، لأن الكثير منها سمي بأسماء البقاع والآبار والجبال وما إليها من الأماكن التي وقعت هذه الحروب عندها أو بالقرب منها ، ونتج من ذلك أن الواقعة الواحدة كانت تنسب إلى أماكن مختلفة وتسمى بأسماء متعددة .

وتتشابه وقائع هذه الأيام ويكاد ينطبق الواحد منها على سائرهما . والذي كان يحدث أن أفراداً يتعاركون على موضع أو مال ، أو يستنفرون دفعاً لاهانة أو طلباً لثأر ، ثم يتسع الخلاف ويستفحل الأمر حتى يشمل القتال عشائر بأسرها أو قبائل بأكملها ، ويتشابك الجمع وتستمر الواقعة فتدخل قبيلة محايدة أو أمير محايد حقناً للدماء ، إلى أن يعود الأمن إلى نصابه وتدفع الدية عن قتل .

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى الموضوع في أوسع حدوده وأن نذكر الحقيقة التي لا يرقى إليها المشك في العصر الجاهلي ، وهي اختلاف العرب بين الشماليين وجنوبيين ، أو بين عدنانيين وقحطانيين ، أو بين زاريين أو معديين أو قيسيين ويمانين . قد يشك العلماء في صحة انتساب القبائل إلى هذه الأصول العامة ، وقد يرتابون في تفصيل هذا الخلاف ، ولكنهم لا يستطيعون إلا أن يساموا بوجوده على الاجمال ، ولكن الأيام العدنانية القحطانية ليسب بذات غناء في الدلالة على ما نحن بسبيله من فعال القبائل التي تعنينا بخاصة .

وأيام الحلف القيسي العام كثيرة متشابهة<sup>(١)</sup> وقد تحدث عنها أبو عبيدة وعنه نقل أصحاب التواريخ والأخبار فأورد ابن عبد ربه الأيام القيسية الخالصة واعتمد الذويري عليه<sup>(٢)</sup> . ومن المتمدن علينا أن نحقق هذه الأيام أو ترتيبها ترتيباً زمنياً . ويكاد يكون من المستحيل أن نتعرف على الأصل الصحيح لهذه الروايات التي يشيع فيها القصص ويفلب عليها الخيال .

ومن الخير أن تقسم الأيام المتصلة بالحلف القيسي العام إلى قسمين رئيسيين ما دامت الحياة العربية البدوية تقوم — كما قلنا — على عصبية الدم والقراة ، وما دامت نظرية الأصل المشترك هي محور وجودهم . وهذان القسمان هما : الأيام الخارجية التي تتصل بمحاربة عدو خارج عن الحلف العام . والأيام الداخلية التي تتصل بمحاربة فروع هذا الحلف ووحداته بعضهم لبعض ، مع بيان مواقف سليم وهوازن وعامر بن صعصعة وهلال من هذه الأيام .

وقد استعر اختلاف بين هذا الحلف القيسي وبين مجموعتين كبيرتين من القبائل يجتمعان وإياه في الأرومة الأولى . فهما من عرب الشمال وتشاركانه في أب أعلى

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) ابن عبد ربه . العقد الفريد ج ٣ ص ٤٧ — ٩٣

من قيس . أولاهما : مجموعة تميم ، وثانيتها : مجموعة كنانة . وكلاهما تلتقي مع قيس في شجرة النسب عند الياس .

وانحازت سليم وهوازن وعامر إلى أبناء عمومته في مدافعة هذين العدوين ولم يشدوا عن هذا الموقف في جميع الأيام التي أثرت عن العرب الجاهليين ، واشتهرت كل وحدة من هذه الوحدات الثلاث بأيام مشهورة عرفت بها وانتصرت في معظمها ، واشتهر بفضائها واشتهرت هي بفضل سيد من السادات أو فارس من الفرسان أو شاعر من الشعراء .

فهذه سليم تلتقي بتميم يوم « ذات الائل »<sup>(١)</sup> وتلتقي مع كنانة « يوم الكديد »<sup>(٢)</sup> . ولعل أيام الفجار<sup>(٣)</sup> هي أشهر أيام العرب جميعاً . وقد سميت كذلك لأنها وقعت في الأشهر الحرم فعد خروجهم على السلم فيها فجوراً ، وكانت بين هوازن من ناحية وبين كنانة من ناحية أخرى . واشتهر بنو عامر بن صعصعة في قتال تميم وكنانة بأيام مذكورة منها « يوم السؤبان »<sup>(٤)</sup> و « يوم فيف الريح »<sup>(٥)</sup> .

أما الأيام الداخلية التي انقسم فيها الحلف القيسي العام على نفسه فليس يعنينا منها ما اشتجر بين عبس وذبيان في تلك المشاهد المعروفة بأيام « داحس والغبراء »<sup>(٦)</sup> على شهرتها وتعددتها وكثرة ما لا بسها وقيل فيها . ولكننا نلتقي بالناس إلى ما كان بين غطفان من ناحية وبين مجموع هوازن وسليم من ناحية أخرى ، وقد تأثر هذا النزاع الدموي بما كانت عليه القبائل من حلف وانقسام فتداخلت العلاقات وأغد

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٥٣

(٢) المصدر السابق ص ٥٥

(٣) المصدر السابق ص ٧٧ ، ٧٨

(٤) المصدر السابق ص ٥٦

(٥) المصدر السابق ص ٧٣

(٦) المصدر السابق ص ٤٩

الأحلاف والخصوم على السواء من الأحن والثارات ، فأبحازت تميم إلى عدو هوازن  
وسليم وانقسمت غطفان على نفسها في بعض المشاهد والأيام .

ولم تكن سليم في هذه الأيام أقل شأنًا منها في الأيام الخارجية وهي التي اشتهر  
فيها أبناء الشريد وغيرهم بالفروسية والشعر في أكثر من مشهد . وحسبنا أن نذكر  
لها في هذا المقام ثلاثة أيام : « يوم حوزة الأول <sup>(١)</sup> » و « يوم حوزة الثاني <sup>(٢)</sup> »  
و « يوم عدنية <sup>(٣)</sup> » ويعرف كذلك بيوم ملحان .

وتقاومت الحروب بين غطفان وهوازن ، أو بعبارة أدق ، بين غطفان وعامر ،  
وكانت غطفان تستعلى عليها وتأخذ الخراج منها فتارت وظهرت عليها يوم النفراوات  
ويوم الرحران <sup>(٤)</sup> . ومن أيام عامر المشهورة ، ولعله أعظم أيام العرب كما يقول صاحب  
العقد الفريد ، هو « يوم شعب جبله <sup>(٥)</sup> » الذي استغاث فيه جميع الأحن والسخائم ،  
وهو امتداد ليوم الرحران . بيد أن أيام عامر مع غطفان وأحلافها لم تكن نصرًا  
كلها ، فقد هزموا « يوم الرقم <sup>(٦)</sup> » و « يوم النعأة <sup>(٧)</sup> » .

وإذا تحولنا إلى هلال الذي غلب اسمه على مجموع هذه القبائل والبطون فيما بعد ،  
فإننا لا نستخلص له ولا لقبيله صورة واضحة . وليس من شك في أن الهلالية كانوا  
يخضعون لناموس الحياة القبلية ، وكل ما أثر عنهم لا يبدو ما أثر عن الأعراب بعامه  
من الانحياز إلى العصبية .

(١) العقد الفريد ص ٥٢

(٢) المصدر نفسه ص ٥٢

(٣) المصدر نفسه ص ٤٤

(٤) المصدر نفسه ص ٤٥

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٦

(٦) المصدر نفسه ص ٥٦

(٧) المصدر نفسه ص ٥٢

وقد دار بنو هلال في المجال العام لهذه العصبية ، فنحن نراهم كسائر العدنانية يكرهون القحطانية وكانت العداوة بينهم وبين الأزد مشهورة لمجاورتهم إياهم . من ذلك ما ذكره صاحب الأغاني وهو يتحدث عن حاجز الأزدى أحد الشعراء الصعاليك اليمانية في العصر الجاهلي قال : « . . . اجتاز قوم حجاج من الأزد بيني هلال بن عامر بن صعصعة ففرقهم ضمرة بن معز سيد بني هلال فقتل فيهم وسبي منهم . . . »<sup>(١)</sup>

وانضوى بنو هلال كذلك في الخلف القيسي وشاركوا فيها أسميناه بالأيام الخارجية ، فنحن نراهم مع بطون أخرى هوازن وعلى رأسهم ربيعة بن أبي ظبيان الملالي سيد عامر بن صعصعة جميعاً ، على بني الليث من بطون كنانة وأخذوا ألعابهم ، وكان ذلك قبيل الصلح الذي تم بين قريش وكنانة من ناحية ، وبين هوازن من ناحية أخرى بوساطة وهب ابن معتب أمير بني ثقيف من بطون هوازن .

كما انحازوا إلى أبناء عمومتهم عامر بن صعصعة في قتال بني نهدل من تميم يوم الوندرة أو الوندات وقتل منهم ما يقرب من ثمانين رجلاً<sup>(٢)</sup> .

ولم يؤثر عن بني هلال في كتب التواريخ والأخبار شيء له خطره فيما يتصل بالأيام القيسية الداخلية ، ولكن الذي لا شك فيه أنهم ناصروا — متأثرين بعصبيتهم القبيلية — بني عامر وهوازن فيما استمر بينهم وبين غطفان من مشاهد وحروب .

والدروس لهذه الأيام ، وإن تعذر عليه ترتيبها ترتيباً زمنياً ، كما قدمنا ، يستطيع في يسر إذا تأملها مستعيناً بأخبار الأعلام الذين شاركوا فيها ، شعراء وفرساناً من ناحية ، واهتدى بسيرة النبي صلوات الله عليه من ناحية أخرى ، أن يستخلص الأطوار الزمنية التي حدثت فيه هذه الأيام .

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٥٢

(٢) ياقوت معجم البلدان ط القاهرة ص ١٣٢٣ ج ٨ ص ٣٩٧

فقد ذكر صخر بن عمر الشريد « يوم ذات الأثل »<sup>(١)</sup> وهو أخو الخنساء التي عاشت حتى أدركت النبي صلوات الله عليه ، وكان لها مع السيدة عائشة رضي الله عنها مجلس وحديث ، وامتد بها العمر فيما يقال إلى أيام معاوية بن أبي سفيان<sup>(٢)</sup> .  
أما أيام الفجار فلم تتعد جيلين أو ثلاثة ففيها ذكر حرب بن أمية والعنابس<sup>(٣)</sup> .  
وفي كتب السيرة أن محمداً صلى الله عليه وسلم حضر الفجار وهو حدث لم يتجاوز الرابعة عشرة على المشهور<sup>(٤)</sup> . ويذكر الاخباريون أن وقعة « فيف الريح » كانت بعد بعث النبي صلى الله عليه وسلم بحكة وأدرك بعض رجالها الاسلام فأسلموا<sup>(٥)</sup> .  
كما ورد في يوم شعب جبله اسم سنان المري<sup>(٦)</sup> ، وترجع شهرته إلى ولده هرم ابن سنان الذي تدخل في حرب داحص والغبراء ، وحسم الشجر المتأجج بين عبس وذبيان ، ودفع اللديات عن قتل من ماله الخصاص ، وهو الذي عاش الشاعر زهير بن أبي سلمى على الاشادة به . وليس يخاف أن زهيراً هو والد كعب الذي وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحه وأخذ منه البردة المشهورة في التاريخ<sup>(٧)</sup> . ولعل عامر ابن الطفيل هو أشهر فرسان عامر بن صعصعة واسمه أكثر الاسماء دورانا في أيامهم .  
وقد وفد على رأس عامر وهو اذن عام الوفود على الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة وعز عليه أن يدخل في الاسلام وهلك في عودته إلى قومه<sup>(٨)</sup> .

(١) لسند الفريد ص ٥٣

(٢) المصدر السابق ؛ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء طبعة ده غوى ليدن ١٩٠٢ ص ١٩٧

(٣) العقد الفريد ص ٧٨

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٧٨ ، سيرة ابن هشام طبعة يولاق ١٣٣٢ هـ ج ١ ص ١٧٣

(٥) العقد الفريد ص ٧٣

(٦) المصدر السابق ص ٤٦

(٧) بانث سعاد . طبعة Basset الجزائر ١٩١٠ ، ص ٩٠ — ٩١ ؛ ابن قتيبة الشعر والشعراء طبعة ده غوى ليدن ١٩٠٢ ( ومن العجيب أن صاحب السيرة ابن هشام وابن اسحق لم يذكرا شيئاً عن قصة هذه البردة ) .

(٨) سيرة ابن هشام ج ٢٨ ص ٣٨٠ وما بعدها .

وإذن فلا يمكن أن تتعدى أيام العرب القيسية هذه كلها أو جلها قرناً واحداً قبل ولادة الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة .

والمشخصات التي أعطيت للأبطال والشعراء في هذه الأيام لا تدل على خصوصية فردية تميز صاحبها من غيره ، ولكنها تدل على صفة من الصفات العربية البدوية ، حتى أصبحوا عندنا المثل التي تدل على هذه الصفات والمحامد الشائعة بين جميع القبائل والبطون ، شمالية وجنوبية ، تميمية وقيسية ، سلمية وهلالية ، فلا يمكن أن نستخلص منها ما يمتاز به قوم من قوم ، أو ما تتفاضل به عشيرة عن عشيرة .

ولن نكون أسعد حظاً إذا نحن استخرجنا المعبودات الخاصة بكل جماعة . فقد روى صاحب تاج العروس أن صليماً كانت تعبد صنماً اسمه « ضار » <sup>(١)</sup> كان يعبده العباس بن مرداس السلمي ورهظه ، وأن هوازن عبدت صنماً يدعى « جهار » <sup>(٢)</sup> . ولعل أشهر هذه المعبودات هو « ذو الخلصة » قال الكلابي : « . . . كان صهوة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج وكانت بتباله بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة . . . وكانت تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن . . . » <sup>(٣)</sup> وفي هذه العبارة الأخيرة إشارة إلى هلال على وجه الخصوص .

وأخذت هذه القبائل القيسية ، وبخاصة بنو عامر بن صعصعة ، فيما أخذ به العرب من تعظيم البيت العتيق بمكة ، بل إنهم شاركوا قريشاً ما كان لهم من حرمة ، ودخلوا معهم في شعيرتهم وسماوا وإياهم « الحس » أي الذين تحمسوا في دينهم وتشددوا

(١) السيد محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ج ٣ ص ٣٥٣

(٢) المصدر السابق ص ١١٥

(٣) ابن الكلابي : الأضنام ط دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ تحقيق أحمد زكي باشا .

وكانوا لا يعظمون شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم فتركوا الوقوف على عرفة وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج<sup>(١)</sup>.

وليس يستخلص من هذا كله إلا أنهم كانوا كغيرهم في وثبيتهم ، وإن فضلوا سواهم فبشيء من التشدد في إقامة الشعائر .

وإذا انتقلنا إلى المجال اللساني فسوف نجد أن هؤلاء الأعراب كانت لهم لهجة دارجة ، إذا شئت ، يتفاهمون بها في حياتهم اليومية إلى جانب تلك اللهجة الفصيحة العامة التي كانت بمثابة اللغة الأدبية أو الدبلوماسية بين سائر الجماعات في الجزيرة العربية وهي التي كانت مناط التفاهم في المحافل والأعياد والأسواق العامة عند ما تقدع هذه الوحدات المختلفة أبداً إلى سلم دائم أو مؤقت في مكان حرام أو أشهر حرم . ولكننا لم نصل إلى مدونات هذه اللهجة كما وصلت إلينا مدونات اللهجة الفصيحة العامة . وانحساص الجزيرة العربية عن الغرباء أمداً طويلاً لم يشجع العلماء اللغويين أو اللغويين على التقاط ما بقي في السنة التجديدين المحدثين من تلك اللهجة ، وكل ما استطاع أن يتبين الآن مستمد من القراءات أو الروايات المأثورة عن اللهجات ، على قلتها بل ندرتها ، وهو يفيد أن هؤلاء الأعراب كانوا من أفصح الناس لغة<sup>(٢)</sup> وأنهم ظلوا كذلك أجيالاً مما يدل على إيصال أرومتهم العربية من ناحية وقرب لهجتهم من اللغة الفصحى من ناحية أخرى . وانحصار اللسانية التي احتفل بها اللغويون والنحاة لا تخص قبيلة بعينها من تلك القبائل ولكنها شائعة بين سكان نجد أجمعين وهي خصائص صوتية ونحوية قيسية . فهم — مثلاً — ينطقون الهمزة ، ولعلمهم لا يزالون يفعلون ذلك إلى الآن ، مجهورة من الحلق ، وهم يميلون بها إلى العين إذا كانت في أول الكلام وإن لم يطردها قياساً في جميع

(١) ابن دريد الاشتقاق طبعة فستندل ١٨٥٤ ص ١٥٣

(٢) الهداني : صفة جزيرة العرب ص ١٣٦ وما بعدها .

الأحوال . مثال ذلك أنهم قالوا — أو يقولون — « عَن وَعَنَّ وَعَسَلَمَ وَعَدَّان »  
في مقابل « أَنْ وَأَنَّ وَأَسَلَمَ وَأَذَانَ » كما أن لهم جنوحاً إلى الإهالة والاشتمام ، فهم  
يقولون « نَعَلِمَ وَنَنطَقُ وَنَسْتَخْرِجُ في مقابل « نَعَلِمُ وَنَنطَقُ وَنَسْتَخْرِجُ » وينطقون  
« حَبَلِي » بدلا من « حَبَلِي » وينطقون « هُو وَهِي » (مع مد حركة الهاء وعدم  
تحريك الواو أو الياء) بدلا من هُو وَهِي ويقولون لدنُه في مقابل لدنِه<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من شيء فإن القبائل العربية البدوية كانت تمر في تلك الفترة بما  
يشبه الانتقال من طور إلى طور . أو بتعبير آخر كانت في ختام مرحلة التفرق  
تتداعى ، واعيية أو غير واعيية ، إلى الوحدة حتى إذا تبلورت نواة الدولة العربية  
الأولى في المدينة كانت قبائل سليم وهوازن وطمع قد كثر عديدها واتسع نفوذها  
واشتد خطرها فأخذت تناضل عن استقلالها . وسنرى بعد ماذا تم بين هاتين  
القوتين ، التي تدفع إحداهما إلى التكثر وتدفع الأخرى إلى التوحد :

(١) للتوسع في هذا الموضوع أنظر . سيبويه ، طبعة ترنبرج ، ج ٢ ص ١٦٨ وما بعدها ،  
و ٢٧٥ وما بعدها ، الزحشرى . الفصل ، طبعة بروش ص ٥٢٧ ، ٥٨٠ ، ٦٤٣ ؛ السيوطي ،  
المزهر ص ١٠٩ ، ١١٤

## الباب الثاني

### في العصر الإسلامي

مرت الوحدات القبلية العربية بالطور نفسه الذي مرت به سائر الحضارات القديمة في نشأتها الأولى ، ولم تكن القرى العربية الكبيرة كمسكة والمدينة ، وحدات مدنية كهواصم الأمم أو الدول المستقرة . ولكنها كانت إلى ذلك العهد بدوية المظهر قبلية الطابع ، يتألف المجتمع فيها من أحياء أبوية القوام تربط بينها أسباب من قرابة الدم أو الجوار أو الولاء . وهذا النظام هو الذي كان يحدد كل ما يصدر عنها في حرب أو سلم مجتمعة أو مفرقة ، وهو الذي كان يرسم أخلاقها ويكيف سلوك أفرادها . وهي في هذا كله لا تختلف عن النظام القبلي في شيء وإن كانت تدل دلالة واضحة على بوادر التحول في المجتمع العربي من الجاهلية الغليظة القاسية المرتحلة ، إلى الحضارة الآخذة بأطراف من النسيم والاستقرار .

ونحن إذا أمعنا النظر في تذبذب الجماعات العربية من التوحيد والشرك مع ما قدمنا من افتقار المعبودات العربية إلى الدلالات الطوتومية ، أو تأملنا فيما كانت تجيش به نفوس بعضهم من الرغبة الملحة في بعث رسول عربي منها ، فانه لا يداخلنا الشك في أن النزوع العام إلى التوحيد كان قد اتخذ سبيله إلى الظهور ، وأخذ يقوى شيئاً فشيئاً لا يترك فرصة تمر إلا اقتنصها تحقيقاً لهذه الغاية التي تنشدها النفوس الواعية وغير الواعية على السواء أحياناً . وهذه سمة جديدة من سمات التحول ، لا من البداوة إلى الاستقرار فحسب ، ولكن من الفرقة إلى التوحيد والاندماج أيضاً .  
والقرآن الكريم ، وهو الذي ينبئ أن ينتفع الباحث بما فيه من تطور الجماعات

العربية ، يجلو لنا هذا التحول ويفسره ويتتبع مداه وصراحته ، فقد أطلق لفظ « الأعراب » على الجماعات المتبدية ليفرق بينها وبين الجماعات المقيمة والمستقرة ، ورتبهم على درجات ثلاث من حيث الامام القري أو مجاورتها أو الايفال في البادية . وهي تدل كما ترى على درجات التطور الجماعي . وإذا كان القرآن الكريم قد احتفل بموقف هؤلاء الأعراب من الدين الجديد ومقاومتهم له ، فان ذلك يعني بالبداهة موقفهم من الدولة ومقاومتهم لها . والصورة المجمة التي أوردها ، وإن رسبت الجماعة الجاهلية التي لما تدخل في الاسلام ، فانها توضح الملامح العامة لنضال هذه القبائل في سبيل الاحتفاظ بقوامها المتبلور من قديم .

وهكذا تكوّنت النواة العربية القومية الاولى في المدينة — كما يقول أصحاب الطبيعيات — وبدأ نشاطها وشرعت توطد أركانها في الداخل وتمد سلطاتها في الخارج . وكان من الطبيعي أن تناصبها الوحدات القبلية ، المتحالفة وغير المتحالفة ، العداء دفاعاً عن ذاتيتها وزياداً عن استقلالها واحتفاظاً باستقلالها . والتوحد لا يمكن أن يتم سلباً واتفاقاً ، وهو إذا تم فأى الجماعات تسود وأى الجماعات تساد ! وهذه قيس عيلان تمد رواقها على القبائل ذوات العدد لا يمكن أن تسلم أو تسلم إلا مكرهة وقد كانت غضبان المرهوبة الجانب ، وسلميم المشهود لها بالشجاعة والاقدام ، جارتين شديتتى المراس على هذه الدولة الوليدة ، والمساس باحداها قد يجز قيساً كلها إلى الحرب ، وفيها هوازن ، وبينها وبين قريش الموقرة صلوات وأحلاف ، والمهاجرون قلة والانصار من الأوس والخزرج يباعد بينهم وبين النزارية جميعاً نسب متوغل في القدم وتفصلهم عنهم المصلحة وشائج القربى .

ويبدأ الصراع بين هاتين القوتين ضعيفاً أول الامر ، ولعل كل منهما كانت تترقب في حذر . واصطدمت الدولة وهي تقوم بوظائفها في التدعيم والتوسع جميعاً

بسليم ، فأخذت تنوشها في حبيطة وأناة ولما يعض على قيامها عام وبعض عام . ولكن  
سليما على عزتها وقدرتها وغناها كانت تؤثر العافية ، ففي شوال من السنة الثانية  
للهجرة ( وفي رواية أخرى في المحرم من السنة الثالثة ) بلغ رسول الله اجتماع  
بنى سليم على ماء لهم يقال له « الكدر » فاستخلف على المدينة ابن أم مكتوم<sup>(١)</sup>  
وجعل اللواء لعلي بن أبي طالب وصار اليهم ولكنه لم يلق كيذا فعاد ومعه النعم  
والرضاء<sup>(٢)</sup> . ولم تكن الدولة لتتقنع بهذا القدر من الغنيمة وهي تدرك أن خصوصها  
لن يسكتوا عنها ولا بد لها من الظهور عليهم . فلم يكدر رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يستقر في المدينة بعد هذه المناوشة حتى عاد فأرسل غالب بن عبد الله الليثي في سرية  
أخرى اليهم فقتل فيهم وغنم منهم . وفي جمادى الأولى من السنة الثالثة أعاد الكرة  
عليهم لما بلغه من تجمعهم ببجران عند الفرع فاستشعروا الخوف وخشوا على أموالهم  
فقلوا له الطريق ولم يلق منهم كذلك كيذا<sup>(٣)</sup> .

ولكن النزعة الاعرابية — إذا صح هذا التعبير — أخذت تتحفز لأيام  
مشهورة ففي مطلع السنة الرابعة ، قدم المدينة أبو براء بن مالك بن جعفر ملاعب  
الأسنة سيد بنى عامر بن صعصعة ، فطلب اليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل  
في الاسلام فرفض واقترح عليه أن يبعث نفراً إلى أهل نجد فلعلمهم أن يستجيبوا  
له ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين رجلاً فساروا حتى نزلوا بيئر معونة  
من أرض بنى عامر وحره بنى سليم فاستصرخ عامر بن الطفيل آل عامر فلم يروا  
أن يحضروا بأبي براء — على مألوف العرب — وقد أجاز رسل النبي ، فاستصرخ  
بنى سليم ، عصية ورعل وزكوان ، فأجابوه وأحاطوا بالمسلمين وقتلواهم عن آخرهم .

(١) المقرئى : أمتع الأسماع القاهرة ١٩٤١ ص ١١١ ، ١١٢ ؛ سيرة ابن هشام

ج ٢ ص ٣٣١

(٢) سيرة ابن هشام المصدر السابق .

(٣) ابن هشام ( السيرة ) ج ٢ ص ٣٣٣ ؛ المقرئى ص ١١٢

وليس يقف جهد الباحث في تطور الجماعات وهو يتتبع هذا النضال على مشهد القتل والقتال ، فان من الأخبار السلمية ما هو أقوى من تلك دلالة . مثال ذلك زواج النبي بزینب بنت خزیمة المعروفة بأُم المساكین فی رمضان من السنة الرابعة للهجرة<sup>(١)</sup> فنحن نعلم أن النبي لم يكن يقدم على الزواج لذاته فحسب ، وإنما كان يقدم عليه لغايات أخرى أبعد منه مدى وما نظن أنه بنى بزینب هذه لمجرد الزواج ، وإنما بنى بها ليتألف قلوب هؤلاء الأهراب الجفاة . وكتب السيرة وتراجم الصحابة تقطع بأنها من هلال . فهل معنى هذا أن هلالاً قد تكاثرت حتى أصبح لها من الخطر ما لسلم أو عاصم . . أو أن رياسة عاصم قد انتهت وقتذاك إلى أمير من هلال . . مهما يكن الأمر فان الروايات والأخبار التي بين أيدينا لا تقطع بشيء في هذا السبيل ، ولو أننا سنرى بعد ما لهذا الحادث من أثر .

وكان من الطبيعي أن ينضم أفراد من تلك الجماعات المتبدية إلى الدولة النظامية وأن يزداد عددهم على الأيام : ولم تكن تلك القبائل لتستطيع أن تخلمهم من زهرتها ، فقد قوى شأنهم بالدولة كما قويت الدولة بهم حتى أصبحوا بمثابة رؤوس الحراب المصوية من الدولة إلى قبائلهم . من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل في غضون السنة السابعة بعد أن فرغ من عمرة القضاء ، ابن أبي العوجاء السلمى إلى قومه بنى سليم ، فما كان منهم ، وهم الذين خفروا بالجوار في يوم سابق ، إلا أن يتجاهلوا ما بينه وبينهم من روابط القربى فلقوه بما يكره وأصيب هو وأصحابه وقيل بل نجا وأصيب أصحابه<sup>(٢)</sup> .

وكما قويت الدولة ، أو قل كلما قوى الشعور بالوحدة ، زاد عدد الأفراد الذين ينضون تحت لوائها . ثم اتخذ هذا الانضمام مظهراً آخر ، فقد خضع لسلطانها كثير

(١) المقرئى . امتاع الأسماع ص ١١٣

(٢) ابن الأثير : السكامل ج ٢ ص ١٧٤ ، « المقرئى » امتاع الأسماع ص ٣٤٩

من المشائر ذوات المنعة . قرأت سليم على مالها من العزة وما بينها وبين قریش من صلة أن من الحكمة وسداد الرأي أن تكف عن لجاج الخصومة وأن تتقوى بالنبي صلوات الله عليه وأن تسهم في غزواته ، فكان لها ما أرادت وشاركت في أعظم هذه الغزوات قدراً وأعلاها شأنًا وهي فتح مكة ، وذلك في رمضان من السنة الثامنة للهجرة<sup>(١)</sup> . وظل بنو سليم على ولائهم للدولة العربية حتى أنهم حاربوا في صفوفها ضد أخوتهم من بني هوازن ، ولعلمهم أدركوا أن مقاومة هوازن هي المرحلة الأخيرة في سبيل غلبة الدولة الجديدة على الجزيرة العربية كلها .

ولما كان منهجنا في تتبع هذا التطور اجتماعياً خالصاً لاصلة له بالأخلاق إلا من حيث دلالتها على التحول ، فليس من شأننا أن نستعجن أولاً نستعجن عملاً يصدر عن هذه الجماعة أو تلك . وما رأينا من خروج سليم على العرف القبلي القديم الذي كانت له وظيفة إيجابية في المحافظة على كيان البلورة الاجتماعية ، إنما كانشارة من شارات الضعف في الروح القبلية يؤذن بالانتقال إلى نظام آخر ، وقد ساعد سلماً على أن تخطو هذه الخطوة الأخيرة خلقها العمل الذي اكتسبته بالتجارة إيثاراً للمنفعة على كل شيء آخر . وتصرفها في كل مرة هو التصرف الذي تملى به يواعث الدفاع عن الذات والافادة من الظروف في وقت معاً .

ومن الدلائل على تصدع تلك الروح القبلية ، العصبية إذا شئت ، أن أفواج المنتظرين في الدولة كانوا يقودون جنودها إلى مواطن أخوتهم وأبناء عموماتهم وذوي قرباهم ، وقد مر بنا أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج من هلال فأعمر هذا الزواج بعض ثمرته ، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بعث بعمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً إلى عجز هوازن بتربة ، كان دليله من بني هلال ، وهم من بطون

هوازن كما قدمنا في الفصل السابق ، وكانوا يسرون الليل ويكفون النهار ولكن هوازن ، وهم من أعرق الأعراب جاهلية ، ما أن سمعوا بخبر هذه السرية على قلة عددها ، حتى هربوا <sup>(١)</sup> ، مما يدل على أن الدولة كانت قد قويت وذاع صيتها بين البدو واشتد خطرهما على القبائل .

ولا حاجة بنا إلى القول أن الدولة العربية الجديدة أحلت الدين محل العصبية في بنائها الاجتماعي ، وهو دين يحارب الشرك الطوطى وغير الطوطى ، ويقسم الناس إلى أخذ به ومنكره ، ولكن العصبية المهزومة لا بد لها من ضربة تقضى عليها القضاء الأخير ، وهي التي تقوى ويشتد تأثيرها كلما قوى الخطر على كيان الوحدة الاجتماعية القائمة بها ، بل إنها لتلتمس القربى في الوحدات الأخرى عن طريق جد أعلى من جدها في شجرة النسب . وهكذا تداعت هذه الوحدات الاجتماعية إلى الوقوف في وجه هذا الخطر الداهم . ولم يعد أمام الحياة العربية إلا واحد من طريقتين فيما الأبقاء على القبالية في صورتها المتبلورة وإما إذابتها في الدولة النامية . وأحدث فتح مكة دويماً هائلاً في الجزيرة العربية كلها وتحفزت الروح القبالية القديمة للدفاع عن ذاتيتها وسبقت هوازن الجاهلية غيرها في هذا المضمار ، وقد أدركت أن استقلالها يوشك أن يزول ، فأجمعت أمرها على الزحف إلى مكة تحت إمرة مالك بن عوف ، واجتمعت مع هوازن ثقيف كلها ، وهم من سليم في المشهور ، ونضر وجشم كلها وصعد بن بكر وناس من بني هلال ، وهم قليل <sup>(٢)</sup> . ولعل زواج النبي منهم قد ألف قلوبهم كما سبق أن قدمنا ، فأعد أكثرهم عن قتاله ، كما غاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب . وأخذ الجمع بنصيحة أميرهم فساقوا معهم نساءهم وأطفالهم وأموالهم وهذا يشير إشارة قاطعة إلى أنهم إنما كانوا

(١) الطبرى . طبعة ده غوى ، ج ١ ص ١٥٩١ ؛ ابن الأثير السكامل ج ٢ ص ١٩٦

(٢) الطبرى . طبعة ده غوى ، ج ١ ص ١٦٥٥ ؛ سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٨٦٤

يدافعون عن الذاتية الجماعية . وللمنألو أخصينا جند الدولة الذين سار بهم النبي صلى الله عليه وسلم لملاقاء هذه الأحزاب وهم يبلغون عشرة آلاف رجل في المشهور ، لأدركنا مدى ما بلغتته الدولة من قوة وسلطان . ولننظر في أحداث هذا اليوم المشهور قبل أن نلم بالنتيجة التي أسفر عنها . لقد التقى الجمعان عند حنين من أودية نهماء ، فكرت هوازن المستبسة في يأس على المسلمين وفرقتهم ، وكادت النزعة القبيلة تعلم انتصارها على النظام الجديد ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبت في نفر من أصحابه المهاجر بن والأنصار وأهل بيته منهم ، أبو بكر وعمر وعلى والعباس وأسامة بن زيد وأبوسفيان بن حرب . وكانت معركة حياة أو موت فخمى الوطيس وانجبت الوقعة عن هزيمة هوازن وسقط عدد من نساءهم وأبنائهم وأموالهم في قبضة المسلمين ، فجمعت في الجعرانة وانسحبت فلوهم إلى أوطاس فتبعهم أبو موسى الأشعري حتى شتت شملهم في شعاب الجبال .

ولم تسكت هذه القبيلة العاتية عن القتال وفيها رمق ، فقد تحصنت هوازن في الطائف ، وهي معقل منيع ، فحاصرتها الدولة النظامية تحت إمرة النبي صلى الله عليه وسلم نيفاً وعشرين يوماً يمنعهم من النقلة أو البيع ، وما أن عاد إلى الجعرانة حتى اتى وفداً من هوازن يبأيونه عن القبيلة ويدخلون في السلم الذي دخل فيه غيرهم ، وتم الصالح واختير أميرهم عامر بن عوف عاملاً عليهم .

والذي لا يشك فيه الباحثون الاجتماعيون أن الدولة الجديدة لم تبتدع نظاماً لم يكن له من قبل وجود ، ولم تقض على السنن الموروثة كلها أو حتى جالها . ولم تستحدث تقاليد جديدة مغايرة كل المغايرة للثقالييد القديمة . ولكنها عدلت في النظم القائمة بما يلائم أغراضها وأهدافها ، وحورت الكيان الجماعى بعض التحوير ، وكسرت من شر العصبية ، ولكنها لم تقض عليها ، فقد بقيت الجماعة أبوية هيراركية ، كما يقولون في المصطلح الاجتماعى ، وإن أمحت الفروق فتداخلت الطبقات . ولا تريب عاينا

إذا نحن وغبنا عن التفسير الديني للتاريخ ، وهو التفسير الذي يقول إن الجاهلية شيء والاسلام شيء آخر ، وقد يكون هذا صحيحاً من وجهة النظر الاعتقادية ولكنه من وجهة النظر الاجتماعية مبالغ لا سند لها من الواقع التاريخي فتنمة جيل أو أجيال من الجاهلية دخلت في الاسلام وانتظمتها الدولة فما استطاعت أن تبرأ من عصبياتها الأولى . والجماعات في تطورها كصور الحياة الفردية سواء بسواء ، فيها سمات تدل على الطور القديم وسمات تشير إلى الطور الجديد ولا يمكن أن تعرض صفة من صفاتها إلا بانقراض الوظيفة الدافعة عليها في أحقاب منعاقبة متطاولة . ومن ثم فقد ظلت الروح القبلية كامنة في أضواء هذا المجتمع تضعف وتبهت وتمكاد تتمحى خلال العصور إذا لم تجد ما يوقظها أو يذكئها .

ولما قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام بعنت العصبية الجاهلية ، ولكن في غير قوتها الأولى ، فقد فقدت جانباً كبيراً من الوظائف التي كانت تقوم بها في السكبان الاجتماعى واتخذ هذا البعث صورة الحروب المندلعة وهى التي سميت بهذا المصطلح الدال على الرجعية « حروب الردة » وقد شملت الجزيرة العربية كلها أو جلها وشاركت فيها قيس عيلان وكانت غطفان أشدها نحمساً وحاولت فتح المدينة أكثر من مرة وتلتها سليم .

أما بنو عاصم بن صعصعة فقد كانوا يقدمون إلى الردة رجلاً ويؤخرون أخرى يتربصون على من تكون الدائرة . ونشب القتال بين سلطان الدولة الحارثية على الوحدة والنظام وبين العصبية القبلية النزاعة إلى التحرر عند بئر بزاخه ، بيد أن الجاهلية كان قد ذهب ريحها فهزم المرتدون وتبعهم فلوطم عند الفجاءة (١) . وهكذا دخلت قبائل وسط الجزيرة فيما خرجت منه وأصبح حمس الجاهلية حمساً في الاسلام .

(١) الطبرى ج ١ ص ١٨٧٠ ، ١٨٨٥ ، ١٨٨٩ ، ١٨٩٨ ؛ ابن الاثير ج ٢ ص ٢٦٤ .

وإذا قال الباحث الاجتماعي إن الأمة العربية قد تكونت أو كادت في ذلك العهد ، فإنه يعبر عن الحقيقة الواقعة في غير إسراف أو غلو ، ذلك لأن هذه الأمة كسائر الأمم ، كانت تتألف وقتذاك من عناصر لم يتم امتزاجها فقد انضمت القبائل بعضها إلى بعض لا في صورة الأحلاف أو الأحزاب ، ولكن في صورة الأقسام ، حتى لنستطيع أن نقول إن العصبية القبلية قد نمت إلى عصبية قومية في أطواء النفس العربية الجماعية وأخذت تقوم بوظائفها من التحذير والحماية والحفاظة على السمات الأصلية . وستحتفظ هذه المجموعات القومية الكبيرة بالسمات القديمة معدلة ومكبرة مما يقطع بأن المجتمع يذتقل من المرحلة القبلية إلى المرحلة القومية .

واستتبع هذا التوسع الجماعي توسعاً يكافئه في المكان ، وإن شئت فقل — كما يقول المؤرخون — انتقلت الدولة إلى المرحلة الامبراطورية وشرعت تحارب دولتي الروم والفرس وتنتقص من رقعتيهما ، ونحن نرجو أن يتتبع بعض الباحثين الوحدات القديمة وخطواتها في تلك الفتوح الاسلامية الأولى<sup>(١)</sup> . وحسبنا أن نعرف أن هذه الجماعة أو تلك قد ساهمت فيها وأن بعض أحيائها قد استقر هنا أو هناك . من ذلك وهما ما يعنينا في بحثنا هذا بخاصة ، أن فرقا من قيس عيلان شاركت في هذا التوسع طلباً للنبي والغنيمة تحت إمرة خالد بن الوليد والمثنى الشيباني وسعد بن أبي وقاص . وشغل الناس عن التوسع والفتح بالرياسة لمن تكون وكيف تكون ، وثارت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية فظهرت العصبية القومية وكانت أقوى من القبلية وأشدّ بأساً ، تنثر بذور الفرقة بين الأقسام غير المتجانسة التي تتألف منها الأمة العربية ، وكان من الطبيعي أن تنضم قيس إلى علي وأن تبلى البلاء الحسن يوم الجمل عام (٣٦ هـ) كما يعود إليهم بعض الفضل يوم صفين (عام ٣٧ هـ)<sup>(٢)</sup> .

(١) الطبري ، طبعة ده غوى ، ج ١ ص ٢٢١٩ وما بعدها ؛ ابن الأثير ج ١ ص ٣٤٧

(٢) أبو حنيفة لدينوري ، طبعة القاهرة ١٣٣٠ هـ ، ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها و ١٥٦

وما بعدها ؛ ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٩

وتحول الأمة العربية من البيعة المطابقة إلى البيعة المقيدة في بيت واحد، سمة من سمات تمام الانتقال من القبلية إلى القومية؛ ونحن نطرح جانباً الفقه الدستوري وما فيه من أنظار وأحكام، فما من صورة من صور الحكم تبقى في جماعة من الجماعات أمداً ما إلا وفيها ملاءمة لهذه الجماعة ودلالة صريحة أو مضمرة على الطور الجماعي الذي ترميه، وقد كانت الأمة العربية تشبه إلى حد كبير — كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين<sup>(١)</sup> — الأمة الرومانية في تحولها إلى القيصرية الوراثية ولا يعزب عن البال أن هذه البيعة المقيدة كانت تسير النظام الأبوي الذي لم يبرأ منه الكيان الاجتماعي للعربي. وكل ما سوف يقع من خلاف حول الحكم ليس مصدره الملاءمة أو عدمها، وإنما مصدره عدم امتزاج العناصر التي تتألف منها الأمة فحسب.

وأول ما نلاحظه في أحداث هذا العهد أن زوراً من القيسية نقلوا ديارهم إبان الفتوح — كما لم يفعل من قبل — ناحية الشمال وبخاصة إلى الشام وقويت شوكتهم حتى أصبحوا عاملاً سياسياً وحريراً له خطره وجعلتهم قوميتهم الشمالية، وهم المضربة التزارية، خصوصاً أثناء لجماعة كلب الجنوبية اليمانية، وهي إحدى بطون قضاة فيما يقول النسابة وكانت منازلها بين مآب وتدمر<sup>(٢)</sup>. وقد كان الخلفاء من بني أمية يعتمدون على السكلبية حيناً وعلى القيسية حيناً آخر تبعاً لروابط الصهر والزواج بين البيت الأموي من ناحية وبين هاتين الجماعتين المتنازعتين من ناحية أخرى.

ويجب علينا أن نتحرز بعض الشيء في القول بتحول الجماعات العربية من القبلية إلى القومية، ذلك لأن هذا القول لا ينسحب إلا على الصورة الاجتماعية العامة المتصلة بأحداث التاريخية، وما من شك في أن بعض الوحدات كثيراً ما تتخلف عن الركب، فتتزوى في ديارها الأولى أو تتخذ لها دياراً أخرى وتعيش

(١) أحمد فريد رفاعي، نصر المأمون، ج ١ ص ١٥ وما بعدها.

(٢) The Ency. of Islam: H. Lammens المجلد الثاني ص ٦٨٨، ٦٨٩.

حياتها المقيدة الضيقة وتمر بالأطوار التي صرت بها سابقاتها التي أصبحت عنصراً من عناصر الأمة ، محتفظة بسماها الأصلية القريبة من الجاهلية . فهذه جماعات من قيس لا تظعن إلى الشام أو إلى العراق وتقيم في نجد في منازلها أو في منازل القبائل التي رحلت ، وتلك جماعات أخرى تهاجر إلى الشام ثم تتشبت ببيئة تشبه بيئتها ، وئمة جماعة ثالثة تنزل صحراء مصر الشرقية على تخوم الوادي الأخضر . وهذه الجماعات وأمثالها تعيش لا تتحول عن بداوتها ، تكره الاستقرار وتخاصم النظام وتحارب الدولة بالعصية القبلية نفسها التي كان يحارب بها أجدادها من قبل .

وقد استطاع معاوية بحلمه وطول أناته وكياسته السياسية أن يستميل أشيخ القبائل وأن يسكن من حدة العصية إقراراً للأمن وتوطيداً للنظام أولاً ، ثم جمع كلمتهم على قبول الانتقال من البيعة العامة المطلقة إلى البيعة المقيدة في البيت الأموي ثانياً وقد وفق في غايته . فنحن نراه يترضى من القيسية قبيلة سليم المشهورين لامتداد ديارها على طريق الحاج بين مكة والمدينة ، كما انتخب من عماله واحداً من رؤسائهم هو أبو الأعور السلمي وقربه إليه وجعله موضع ثقته . كما نراه من الناحية الأخرى قد نال تأييد قبيلة كلب العظيمة في الشام وكان قد تزوج من ابنة بجذل بن أنيف السكلبية وهي أم ولده يزيد<sup>(١)</sup> .

وظلت القبائل القيسية هادئة إلى حد ما أيام معاوية وابنه يزيد ولكنهم انتهزوا فرصة التماثل في البيت السفيناني فشقوا عصا الطاعة على معاوية بن يزيد وكان حدثاً حتى إذا استقرت الأمور لمروان بن عبد الحكم الممثل لفرع آخر من فروع البيت الأموي انضمت القبائل القيسية كلها إلى عبد الله بن الزبير المطالب بالخلافة .

وفي عام ٦٤ هـ حارب بنو سليم وعاصر وعطفان وكلهم من قيس تحت راية الضحاك الفهري الشيباني عند مرج راهط في غوطة دمشق ودارت الدائرة

على الزبيريين وتم النصر لمروان الذي كان يتألف جيشه من بني كلب وغيرهم من القبائل اليمنية<sup>(١)</sup>.

ولم تكبح هذه الهزيمة من جماح القبائل القيسية فظلوا على ولائهم لابن الزبير وأذكت العصبية عداوتهم وقويت شوكتهم في العراق تحت إمرة زفر بن الحارث العامري ونائبه عمير بن الحباب السلمي . ولم يرجعوا إلى طاعة الخلافة الأموية إلا أيام عبد الملك بن مروان بعد حصار طويل ضرب على معاقلمهم في قرقيسياه ورأس العين<sup>(٢)</sup>.

وتحن نجد عمير بن الحباب على رأس القيسية الذين حاربوا الشيعة ، وإبراهيم الأشتر يقودهم على ضفاف الخازر وهو من فروع الزاب<sup>(٣)</sup> . ولم يكن دخولهم في طاعة الدولة برئياً خالصاً ، فقد ألفوا جانباً من الجيش الأموي تحت إمرة عبید الله ابن زياد فصبروا إلى أن حوى وطيس القتال وتركوا المعركة انتقاماً ليوم مرج راهط<sup>(٤)</sup>.

ولم تخبُ خصومة القيسية لبني كلب على الرغم من غلبة الأمويين عليهم . وذكت نيرانها في أيام مشهورة متتالية تشبه إلى حد كبير أيام الجاهلية ، وكان مسرحها في السماوة وهي الصحراء الممتدة بين الشام والعراق وفيها ظهروا على عدوهم واضطروا الجانب الشمالي الشرقي من بني كلب إلى النقلة إلى غور فاستطاعوا .

وحدث عندما نزل عمير بن الحباب مع جنده من بني سليم على الخابور الأعظم ،

(١) المسعودي . مروج الذهب ج ٥ ص ٢٠١ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٣

(٢) الطبري ، ج ٢ ص ٦٤٣ ، ٧٧٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩

(٣) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٣٠١ وما بعدها ، الطبري ج ٢ ص ٧٠٨

وما بعدها ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٠ وما بعدها ، ياقوت معجم البلدان ج ٣ ص ٣٨٨

(٤) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٣٠١ وما بعدها ، الطبري ج ٢ ص ٧٠٨

وما بعدها ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٥ وما بعدها ، المسعودي التنبيه ص ٣١٢

ما لم يكن في الحسبان ، فقد تصدى لهم نصارى بنى تغلب . وكانوا يعيشون في الجانب الشرقي من العراق ، ونشبت بين الفريتين حرب ضروس على الخابور والبلينخ<sup>(١)</sup> والثرثار<sup>(٢)</sup> ومنطقة دجلة . ودارت الدائرة على بنى تغلب فزادتهم ضعفاً وأشهر هذه الأيام الخشاك<sup>(٣)</sup> وفيه قتل عمير ، ويوم سنجار<sup>(٤)</sup> ويوم جبل البشر<sup>(٥)</sup> .

ورأى عبد الملك بن مروان بثاقب فكره أن الأمر لن يستتب إلا إذا حفظ التوازن في الدولة بين التأييد والمعارضة وارتفع عن الحزبية والعصبية فاستدعى زفر بن الحارث ثم أبناءه من بعده إلى قصبة الخلافة في دمشق وأدناهم وكرمهم ، كما تزوج من قيسية أنجبت له ، فممن أنجبت ، اثنتين توليا الأمر بعده هما الوليد وسليمان .

وكسرت هذه السياسة الجديدة من شره العصبية القيسية ، ولو في ظاهر الأمر على الأقل ، فقد كان الوليد بن عبد الملك قيسياً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . ولكنه لم يتورط في التحزب لهم إلى حد يفضي بنى كلب ، وهم عصب الدولة وعمودها القكري . أما سابان فلم ينس التقاليد الأموية ، فقد قرب يزيد بن المهلب الأزدي البجلي ، إلا أنه كان يؤثر مصلحة الدولة على مصالح القبائل والأحزاب .

ويعود الفضل في نجاح هذه السياسة إلى رجل من القيسية كان اختيار عبد الملك ابن مروان له توفيقاً ليس مثله توفيق ، هو الحجاج بن يوسف الثقفي<sup>(٦)</sup> .

(١) النقائض . بين جرير والفرزدق : لندن ١٩٠٥ . نشرة بيغان ج ٣ ص ٨٩٩ ، ابن الأثير

ج ٤ ص ٢٥٨

(٢) النقائض : ج ٣ ص ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٥

(٣) النقائض ، ج ٣ ص ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٥٠٨ ( وهو يذكره باسم « يوم سنجار » ) .

(٤) النقائض : ج ١ ص ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٥٠٨

(٥) ياقوت ، ج ١ ص ٣٦٢ ، البكري ص ١٧٩ ، النقائض : ج ١ ص ٤٠١ ، ٥٠٨ ،

٨٩٩ ، ٩٠٣ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٦١

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٣٠٣

ولعل الخلاف على تعيين ومكانها من القبائل العربية يعود إلى ما ناله هذا الرجل من الحظوة والمقدرة ، وكانت سياسة الحجاج التي وطد بها سلطان الدولة حتى كاد يقضى على العصبية القبلية ، أن يحول العمل عن عصبياتهم القديمة وتأثيرهم في القبائل واعتزازهم بأنصارهم ، إلى موظفين تابعين للدولة لا غير . وأن يوجه القبائل إلى الثغور توسيماً لرقعة الملك وتخصيصاً من أذاهم في آن .

وكان القيسية كما يتوقع منهم أنصاراً لرجل الدولة الحجاج ، وكيف لا يكونون كذلك وهم يمدونه مسلمياً ، وظلوا على هدوءهم أيام عمر بن عبد العزيز الذي لم يقف جهده على التوفيق بين مختلف القبائل والأحزاب ، بل تمسك ذلك إلى محاولة التسوية بين العرب والموالي <sup>(١)</sup> ، مما ساعد على إدماج القاهرين في المتهورين .

ولم تقض هذه الجهود على العصبية القبلية قضاء تاماً ، بل لم تذهب الفتوح المستمرة شرقاً وغرباً بريحتها ولم تتغلب عليها النزعة العالمية التي اتجهت إليها الدولة بعد أن دخلت فيها عناصر جديدة ليست عربية كالفرس والترك والبربر ، ذلك أن يزيد بن عبد الملك كان مرغماً على أن يلقى بنفسه بين أحضان هذه العصبية التي لم تبرأ منها الدولة الأموية في يوم من أيامها ، فولى وجهه شطر القيسية طلباً لنصرتهم في محاربة بنى المهلب الأزدي <sup>(٢)</sup> . ونتج عن هذا أن جنحت الحكومة التي ارتفعت أيام عبد الملك فوق الأحزاب حتى أصبحت حزبية قيسية صارخة

وجاء هشام بن عبد الملك وكان حازماً فظناً فأراد أن يفيد من تجارب أسلافه وبخاصة تجارب أبيه في العمل على التوازن بين الأحزاب ، فعزل عمر بن هبيرة الفزارى القيسى ، وكان أخوه يزيد قد استعمله على العراق ونصب مكانه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٣ ، وما بعده .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٩ .

خالد بن عبد الله القسرى اليماني<sup>(١)</sup> . ولكن الحزب القيسى كان قد قوى واشتد سلطانه فرأى هشام مرغماً أن يعزل خالداً على إخلاصه وكفاءته ، وأن يعين مكانه يوسف ابن عمر ، وهو ثقفى قيسى قريب للحجاج<sup>(٢)</sup> .

وأراد هشام في الوقت نفسه أن يخفف من وطأة هؤلاء الأعراب القيسية فاستجاب لعامله في مصر ونقل جماعة من بنى سليم اليها وأوصاه ألا يتزلّم في الفسطاط أو أرضها اتقاء لشعبهم فصدع لأمره وقيل إنه أنزل خمسمائة منهم بالحوف الشرقى من ديار مصر ، وكانت تنزل هناك يظنون من بنى عامر وعوازن ، وكانت بلمبيس قسبة العمل الذى يحتلونه . وقد بذل الوائى الأموى جهداً كبيراً في تحويرهم من البداوة إلى الاستقرار<sup>(٣)</sup> .

ولما مات هشام كانت الخلافة الأموية في أوجها فقد استمرت الفتوح طوال حكمه على النهج القديم الشامل وامتدت في الغرب على الرغم من ثورة البربر العظيمة عام ١١٣ هـ<sup>(٤)</sup> . كما امتدت في الشرق واتسعت رقعة الامبراطورية حتى بلغت بلاد الغال في أوربة . ويكاد المرء لا يصدق أن هذا البناء الشامخ الذى بنى في أجيال ، يتقوض في زمن قصير ويكون العامل فى بنائه هو العامل على هدمه ، وهو العصبية .

ولسنا نذهب مذاهب المؤرخين الذين جعلوا خلاعة الوليد بن يزيد ومجونهما الباعث على قلب نظام الدولة وتقويض أركانها<sup>(٥)</sup> ذلك لأن قليلاً من إنعام النظر يهدينا إلى السبب الحقيقى فى ضعف الدولة وانهارها فقد ألقى الوليد غداة بويج

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٦٣

(٣) المقرئى ، البيان والأعراب ، القاهرة ١٣٣٤ نشره ابراهيم رمزى بك ص ٦٥

(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٣٠

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٠٧ ، ٢١٠ و ٢١١

بإخلاقه بنفسه في أحضان الحزب القيسي ، وكانت تسوطه دماء قيسية فتارت  
المعارضة اليمانية وأطدت من شهرته بالمجون واستغلت خصوماته الشخصية حتى انتهى  
الامر بقتله <sup>(١)</sup> .

وظنت هذه المعارضة أن الامر قد استتب لها فجاءت يزيد الناقص <sup>(٢)</sup> وبوأنه  
إخلاقه فأثرهم بحظوته وخصهم بالوظائف والأعطية واعتمد عليهم وبخاصة على بني كلاب  
ولكن الدولة كانت قد شاخت ولم تعد تقوى على النهوض . فلما جاء مروان بن محمد  
وتنادى بنفسه خليفة بعد مصرع ابني الوليد لم يؤاف بين الحزبين المتعارضين ، القيسي  
واليماني توحيداً لصفوف الدولة وجمعاً لكلمتها على أعدائها المتكاثرين عليها المتعربين  
بها ، ولكنه آثر القيسية وبلغ من تقربه إليهم أن نقل قصبته إلى حران بين منازلهم <sup>(٣)</sup> .  
وكانت هذه العصبية العمياء هي القاضية على الدولة الأموية في ذلك اليوم الحاسم عند  
الزاب الأكبر عام ١٣٢ هـ . وهو الذي يعد من معالم التاريخ الاسلامي <sup>(٤)</sup> .

وامتد شرر هذه العصبية القومية بين القيسية واليمانية في كل اتجاه ولم يقتصر  
على الشام والعراق بل شمل خراسان وسائر الولايات الاسلامية وبخاصة في شمالي أفريقية  
والاندلس <sup>(٥)</sup> . وقد طأى مجموع القبائل المنضوية في الحلف القيسي من وطأة تلك  
الحروب المستعرة فأنهكت قواها وأضعفت من شرتها وأنقصت عددها وذهبت  
بالقحول من فرسانها ولكنها على الرغم من هذا كله أثرت في تاريخ الدولة الأموية  
وطبعته بطابعها وكانت حتى وهي في صف المعارضة — كما نقول في عرفنا السياسي

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٤٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٩ وما بعدها .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ، النسخة الانجليزية ج ٢ ص ٦٥٦ ب .

الحديث — تتحكم في مصير الدولة وتوجهها الوجهة التي تشاء . ولا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ الدولة الاموية كله لا يفهم على وجهه إلا في ظل هذه العصبية القبلية أو القومية .

وكادت تختفي هذه العصبية في العصر العباسي ، ذلك لأن الدولة لم تكن قائمة على الأرومة العربية وحدها ولكنها كانت تتألف من شعوب متباينة . ومهما يقل في أن الخلافة كانت عربية أصيلة أو أنها كانت قرشية أو أنها كانت من بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن ذلك لا يمنعنا من القول بأن الطابع العربي الخالص قد أخلى مكانه للطابع الفارسي حيناً والتركي حيناً آخر . ومن ثم لم نعد نسمع عن القيسية ما كنا نسمعه عنهم في العصر الاموي ، وليس معنى هذا أنهم زالوا من الوجود أو أن عصبيتهم قد اختفت تمام الاختفاء ولكن المعنى المقصود أنهم أصبحوا عنصراً من عناصر الامبراطورية الاسلامية وليس هو أقوى العناصر التي تتألف منها .

ونحن نسمع عن الخلف التقليدي القديم بين القيسية واليمانية في عهد هارون الرشيد<sup>(١)</sup> في دمشق وأرباضها كما نجد في عهد الأمين يجارون عبد الله السفيناني<sup>(٢)</sup> لا لشيء إلا لأن الدم اليماني يجري في عروقه ، ونجد كذلك الخصومة بين قيس وتغلب تتجدد في عهد المأمون<sup>(٣)</sup>

وكما أننا لم نستطع في العصر الجاهلي أن ندين مشخصات معينة تميز قبيلة عن قبيلة ، فكذلك الحال في العصر الاسلامي ، بل إن مهمة الباحث ، اجتماعياً كان أو مؤرخاً ، تتعذر أو تكاد تستحيل عندما يحاول أن يقص أثر الهلالية ومن حالفوا بنوع خاص . وقد مر بنا أن سلماً شاركت مشاركة إيجابية فعالة في الأحداث

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠٩ ، ٦٢٥ ، ٦٣٩ وما بعدها ، ٦٨٨ ؛ ابن الأثير ج ٦

ص ٨٦ — ٨٨

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢١٣

العامة أبلت فيها البلاء الحسن وغير الحسن ، وبرز منها شعراء وفرسان وقادة ، وأن ظمراً اشتهرت كذلك بأيام ورجال . ولكن النسبة إلى قيس غلبت على الأفراد والجماعات وكسفت النسبة إلى مضر ونزار في ذلك الفضال القوي العنيف بين عرب الشمال وعرب الجنوب . أما هلال فقد ساروا في المجال القيسي وكانت أخبارهم في الإسلام كأخبارهم في الجاهلية قليلة لاندل على منعة ولا تشير إلى غلب . ولم يتحدث الرواة فيما تحدثوا عن أمير منهم يعلم من شأنهم ، مؤيداً للدولة أو معارضاً لها ، ولم نعرف في كتب الأدب شاعراً فحلاً من أبنائها يخلد ذكرها على الأيام . بل إن النقائض لتتحدث عن أيام لسليم وعامر وتغلب وتيمم و... و... وتكاد تصمت عن هلال . وإذا رأيت النسبة إلى هلال مضافة إلى شاعر في ديوان من دواوين الأدب ، فاعلم أنه مغمور لم يعرف إلا أبيات قليلة لاندل على فردية أو جماعية . ولن نستطيع أن نجزم ، أهذه النسبة إلى هلال قيس أم إلى غيره <sup>(١)</sup>

وأغلب الظن أن الهلالية وجيرانهم من سليم قد تكثروا على الأيام في نجد موطنهم الأول وساعدتهم على هذا التكاثر انشغال الدولة عنهم بالفتح حيناً وتوطيد دعائم الحكم في الحواضر حيناً آخر وتقطع الأسباب بين الإدارة المركزية والأقاليم البعيدة عنها مع قصور وسائل الاتصال فاحتملوا بأعرايهم وكانوا أهل شغب ، قليلاً ما يهدأون ، يقطعون الطريق على السفر حجاجاً وتجاراً ، ويكرهون النظام أيا كان مصدره ، والسلب عندهم غنيمة مشروعة تقضى بها خالقيتهم ويقوم عليها مجتمعهم . ومن ثم كانوا من خصوم الدولة النظامية الألداء يرهبونها وترهبهم .

وأفاد العباسيون من تجاريب الأمر التي سبقتهم ودخلت في كنفهم وبخاصة الفرس فحاولوا تنظيم رقعة الدولة مجددين في إدارتها بعد عهد الفتح وشرعوا يرتبون

(١) البحري . كتاب الجماسة . بيروت طبعة لويس شيخه ١٩٠٩ أنظر فهرس الأعلام .

أمور الولايات والأمصار ولم يغمضوا أعينهم عن هؤلاء الأعراب غير المتحضرين ، وما كانوا يقومون به من غارات وقتن . ولذلك كره الخلفاء وعمالهم ، بنى سليم لاستيطانهم بالشر . فقد أغاروا عام ٢٣٠ هـ على المدينة وأرادوا غاملها أن يردهم فلم يفلح ، فما كان من الخليفة الواثق إلا أن جرد عليهم حملة يقودها « بغا التركي » فلقى عناء شديداً في استئصال شأفتهم ثم تحول إلى أحلافهم من هلال ، وكانوا يقيمون بنجد ولهم في تلك الفتنة أصعب فأجبرهم على الاذعان والهدوء وحوصر ألف وثلاثمائة منهم في المدينة فتغفلوا حرامهم وأزمعوا الفرار ، ولكن أهل المدينة أعمالوا فيهم السيف<sup>(١)</sup> .

ولم يقف أمر هؤلاء الأعراب عند قطع الطريق وتهديد الأمن واستيحاء الأموال ، بل تعدوا ذلك كله إلى الانضواء تحت راية كل نائر يريد الاستقلال بامارة أو ولاية أو ينزع إلى القضاء على سلطات الدولة جميعاً . ولعل أخطر حركة من هذا القبيل هي الحركة الدينية الطابع المعروفة في التاريخ بفتنة القرامطة التي اجتمع إليها الساخطون على الدولة العباسية أفراداً وقبيلاً . وما كان من الأعراب الضارين في أطراف الدولة وبوادئها إلا أن أيدوا هذه الحركة وتناسوا — ولو إلى حين — قومية الشمال أو الجنوب ، فانضم إليهما من القيسية سليم وهلال وقد نما واشتد خطرهما . وانضم إليها من البمانية أو تأروها بنو كلب ، وهكذا أخذ نفوذ هؤلاء القرامطة يقوى شيئاً فشيئاً وسلطانهم يتسع يوماً بعد يوم ومدوا رواقهم على بلاد الشام وهددوا دمشق واستجاب لهم الهلالية والسلمية الذين كانوا قد هاجروا إلى هذا الاقليم لأجيال خلت ولوا وجوههم إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، يقطعون الطريق على الحاج ، يستنزفون دماءهم ويسلبون أموالهم ، يساعدهم في ذلك أبناء عموماتهم الذين تتجمع منازلهم بين تينك المدينتين منذ أيام الجاهلية الأولى ، ونحن نعلم أن القرن الرابع الهجري لم يكبد يبدأ حتى عقد لواء القرامطة لأبي طاهر الجنابي ، فظهر على البصرة

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٨ ، ١٢ ، ١٣

والكوفة ، وكاد يدق أبواب بغداد<sup>(١)</sup> كما أن هؤلاء القرامطة تحالفوا على طريقة البدو ، مع بنى سليم وبنى عقيل بن كعب ، وهم من بطون عامر بن صعصعة ، فعانوا بفضل هذه القبائل في الأرض فساداً وخفروا بجرمة الكعبة واقتلموا الحجر الأسود من موضعه ، وأعملوا السيف في رقاب الحجيج<sup>(٢)</sup> ، كما فعلوا عام ٣٤٣ هـ ولم تكن الدولة وقتذاك قادرة على كبح جماحهم أورد عدوانهم . فقد انقضت رقعتها وفصل عنها خير ولاياتها واختلف على الأصر فيها خلفاء ووزراء . وكتب التاريخ والأخبار التي سكتت عن الهلالية وأحلافهم ، ولم تسيغ عليهم من أوصاف المديح لتبريرهم في السياسة أو الحرب أو الأدب بدأت تهتم بأخبارهم العدوانية وتوردها في موضع الاستهجان ، لا لأنهم احتفظوا بالروح القبلية القديمة فحسب ، ولكن لأنهم لم يرعوا حرمة دينية أو غير دينية حتى كادوا يردون إلى الجاهلية وكانوا يفتنون لحساب القرامطة حيناً ولحسابهم أحياناً . ومهما يكن من شيء فقد أقادوا من هذا المدوان فتكاثروا وغنموا وكانهم لا يشعرون بسلمطان الدولة المهيضة الجانب .

وإذن فمن الخير أن نفرّد للحادثة الكبرى في تاريخ هؤلاء القوم ، وهي المعروفة بالغزوة حيناً وبالتغريب أو التغريبة حيناً آخر ، باباً قائماً برأسه لتبين تفصيل ذلك الصراع المتجدد بين البداوة والحضارة ، أو بين الاعرابية والدولة ، أو بين الإباحة التي تكاد تستحل كل شيء ، والاستقرار الذي يأخذ بأسباب الأمن والنظام .

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٦٢ و ٦٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٥٣ ، ٣٦٥ .

## الباب الثالث

### الغزوة الكبرى

لابد لنا ونحن بسبيل التعرض لهذه الغزوة الكبرى أن نقرر أننا سنميل بعض الميل إلى ما يشبه التاريخ الطبيعي ، ذلك لأننا بصدد حادثة طبيعية لم نتحكم فيها إرادة فردية إلا بمقدار . ولم تكن وليدة عبقرية حربية أو سياسية ، أو ثمرة مجد قومي أو وطني . وهكذا يتحول محور الدراسة في أيدينا من الفرد أو الأفراد المؤثرين في الحوادث ، إلى الانسان أو الاناسي المتأثرين بها ، إذ ليس من المستطاع أن يعد الطموح الفردي أو الجماعي هو الباعث على هذه الغزوة . ولا نعمطها حقها باعتبارها حادثاً تاريخياً ، إذا نحن رددناها إلى ضرب من التناحر على البقاء تقوم به جماعات من النوع الانساني .

ويحدثنا أصحاب الطبيعيات عندما نستعين بهم على فهم هذه الغزوة وأشباهاها بأن هناك دورات مناخية معقدة البواعث لا نستطيع تحليلها في يسر ، ولكننا نلاحظ آثارها جلية واضحة فيما تعرض له بعض الارضين من خصب وجوع . ومن المسلم به أن سكان هذه المواضع يقل عددهم في فترة الجوع عندما تشتد معركة التناحر على البقاء بينهم وبين الطبيعة . أما في فترة انخسب ، فان السكان يطعمون على ذواتهم وذراريهم وتهدأ معركة التناحر إلى حين . ويشبه بعض العلماء الصالح العام لكل جماعة بشرية بألة حساسة من آلات الرصد تسجل جميع بوادر التذبذب أو التقلقل في تلك الجماعة <sup>(١)</sup> . وما على العلماء إلا أن يفتحوا أعينهم على ما تسطره

في أطوائها إذا أرادوا أن يفسروا حركات الجماعات البشرية تفسيراً علمياً . وغنى عن البيان أن البواعث الطبيعية التي نحن بصدها ، فيها المباشر وفيها غير المباشر . فإن كل دورة من دورات الجفاف تؤثر مباشرة على الجماعة التي تنشأ فيها وهؤلاء يندفعون من مواطنهم إلى غيرها فيجأون أو يجاولون ، إجلاء أصحابها الذين يتجهون بدورهم ناحية جماعة ثالثة وهكذا . . . وقد دلت أبحاث العلماء على أهمية العامل المناخي في هجرة الأقوام في جميع العصور . وليس يكفي أن تنظر إلى جماعة بعينها في نقلها من موطن إلى موطن لتبين هذا العامل المناخي ، فقد يكون بعيداً كل البعد عن البقعة التي تدرسها ، وخير مثل لذلك ما عرف في التاريخ بـ « هجرة الشعوب Völker wanderungen »<sup>(١)</sup> . فلم يكن الباعث على هجرة القبائل التيوتونية ليكشف عنه في أوربة ، لأنه إنما نشأ في آسيه وأثر تأثيراً مباشراً في المثل وهؤلاء دفعوا جيرائهم فأصابوا الجماعات كلها برعدة الهجرة والانتقال .

وتعد الجزيرة العربية من أهم منابع الثروة البشرية — إذا صح هذا التعبير — على الرغم من أن الجانب الأكبر منها غير مأهول وسطحها في اتجاهه البشري يميل ناحية الشمال ، وتقطعها في بعض أجزائها أودية وشباب تصلح دروباً للسفر والانتقال . وهي في فترات الخصب والنماء تحتل أفواجاً كبيرة من الناس والأنعام ، فإذا ما تعرضت للجذب الساحل ، وكثيراً ما تتعرض له بفضل التغيرات المناخية ، اندفعت الجماعات البشرية إلى تخوم الصحراء واستقر بعضها في السهول وجد بعضها الآخر يفتش عن موضع يشبه موضعه الأول أيام يسره .

ويحدثنا التاريخ عن هجرات أربع كبيرة لسكان هذه الجزيرة العربية . الأولى بابلية ساطت أكاد وسومر وعيلام بدمائها وفرضت عليها لغتها . والثانية كنعانية ، على خلاف بين العلماء في هذه النسبة إلى كنعان ، أهي إلى القوم المهاجرين ، أم إلى

(١) المصدر السابق ص ١٧٩٢ .

الأقاليم الذي هاجروا إليه وقد بلغت أرض مصر . والثالثة آرمية سيطرت على بلاد الشام وجعلت دمشق عاصمة ملكها . والرابعة هي الإسلامية التي سارت على طول الحافة الشمالية للصحراء وانتشرت في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا وعبرت الجزيرة الأيبيرية إلى مدينة بواتيبه أو « بلاط الشهداء »<sup>(١)</sup> .

وهذه الهجرة الأخيرة لا تزال ماثلة بآثارها العنصرية والحضارية إلى الآن . ولكن عرب الفتح استقروا في الأمصار وانقسموا على المنافع وألفوا الحضارة ونسوا البادية . ولم يستطع ابن خلدون في أيامه أن يتقصى القبائل العربية التي شاركت في الفتح ثم تحضرت واكتفى بأن قال « . . . هؤلاء كلهم أنفقهم الدولة الإسلامية العربية . فأكلتهم الأقطار المتباعدة واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم حتى يطرف ولا حلة تنجع ، ولا عشير يعرف ، ولا قليل يذكر ، ولا عاقلة تحمل جناية ، ولا عصابة بصريح إلا سمع من ذكر أسمائهم في أنساب أعقاب متفرقين في الأمصار التي أحوها بجمالتهم فتقطعوا في البلاد ودخلوا بين الناس »<sup>(٢)</sup> . . . .

وانتبت طائفة أخرى من هؤلاء العرب البوادي وأقاموا أحياء جافية لم يفارقوا ما جيلوا عليه من خشونة العيش . ويكاد يكون من المستحيل أن تعطى صورة كاملة مضبوطة لنجوع هذه القبائل على اختلاف منابئها وأصولها وكثرة نقلتها ، وإن حاول قليل من المؤرخين أن يفصلوا آثار بعضها في أقاليم بعينها<sup>(٣)</sup> ، أو يجمعوا القول على مواضعها جميعاً<sup>(٤)</sup> .

وقيام الدولة العربية بالفتح أدخل عنصراً جديداً في نقلة القبائل يتخذ المظهر الإرادي ، وهذا العنصر هو تغايب العصبية في سياسة الخلفاء والعمال بالنسبة إلى

(١) [The Dawn of History: J.L. Meyers] ص ١٠٩ وما بعدها

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣

(٣) المقرئ في كتاب البيان والاعراب ص ٢٠ وما بعدها .

(٤) كابن خلدون في الجزء السادس من كتابه ص ٥٠٥ ، ٦٠٥

البدو ، وقد سبق أن رأينا عند حديثنا عن العصر الأموي<sup>(١)</sup> أن الموازنة بين التأييد والمعارضة في الأدلة كانت تقوم بالمصيبة ولا تقوم بأى شيء آخر . ولكن هذه الهجرات التي دعا إليها أصحاب السلطان — في ظاهر الأمر — لا تدل على أن الباعث الطبيعي مفقود ، ذلك لأنها إنما كانت توابع للهجرة الكبرى أو حركة الفتح نفسه دعا إليها العمل على التنظيم ومحاولة الاستقرار بعد الغلب والملك .

ولعل مما يحول بيننا وبين أحكام السير على المنهج الطبيعي فيما يقصل بالغزوة الهلالية ، أن المؤرخين قصرُوا همهم على تتبع المظاهر دون الالتفات إلى البواعث الطبيعية حتى ضاعت معالم هذه البواعث . وقد نبئنا أن القبائل القيسية انتشرت في بادية العراق منذ الفتح الأول أو حتى قبله وأنهم لونوا تاريخه بطابعهم الخاص أمداً ما ، وعرف شطر منه بديار مضر في مقابل الشطر الآخر المعروف بديار ربيعة<sup>(٢)</sup> ، وكانت لسليم وهلال بخاصة محلات في حواضره . من ذلك ما ذكره الطبري<sup>(٣)</sup> أن فريقاً مهماً من بني هلال وبني سليم اتخذوا لهم محلة بوادي الكوفة حوالي عام ١٢٠ هـ ، وكان في هذا الموضع مسجد يعرف بمسجد بني هلال . كما أن بني هلال هاجروا إلى بلاد الشام وغلبوا على أرباض حلب والموصل ونزلوا المنازل التي كانت قبلهم لربيعة وكهلان<sup>(٤)</sup> ، واستقر بعض بني هلال وغالب بني سليم في نجد لم يغادروها مع الأفواج التي غادرتها وظلت في مكانها إلى القرن الرابع<sup>(٥)</sup> . أما في مصر فقد مر بنا أن صاحب الخراج فيها استقدم إلى الحوف الشرق أيام هشام بن عبد الملك الأموي عام ١٠٩ هـ أبياتاً قيسية من نصر بن معاوية وعاصم بن صعصعة وغيرها

(١) الباب الثاني

(٢) ابن خردادبة ص ٢٤٥ ، ٢٤٦

(٣) ج ٣ ص ١٦ ، ٨٧

(٤) مارسيه ، ص ٦٦ Ses Arabes Berbréie

(٥) المصدر نفسه .

من بطون هوازن<sup>(١)</sup>، ويذكر ابن خلدون أن آخر مواطن العرب الهلالية كانت في برقة إذ انتجعها بنو قره بن هلال بن عامر<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن الفاطميون كبنى العباس الذين خرجوا على النزعة العربية مجاراة للعنصر الفارسي حيناً والعنصر التركي حيناً آخر، ولكنهم كانوا أقرب إلى الأمويين يحتفلون بالأعراب ويتخذون العصبية القبلية في سياسة الملك وتوطيد أركانه ولعلمهم تفوقوا عليهم في هذا المضمار، فقد شادوا دولتهم على عصبية كتامة وأنابوا عنهم من بطونها صنهاجة لما اتسعت فتوحاتهم كما استغلوا الاحن القبلية القديمة في القضاء على خصومهم والاحتفاظ بالتوازن في دولتهم المتراصة الأطراف.

أما الأعراب الهلالية والسلمية فقد انصرفوا إلى تحقيق آرائهم دون أن يكثرنوا بالدولة العباسية التي رغبت عنهم إلى غيرهم. وكثيراً ما دفع التقليل الداخلي أولئك الأعراب إلى الاستهانة بسلطانها والامتخاف بعالمها. وقد كانوا متأهين أبدأً لأن يلبوا دعوة كل ناثراًياً كان مذهبه. وكيف لا يبنضون تحت راية القرامطة الذين لجوا في خصومة الدولة وكادوا يقتحمون بغداد. والذين قالوا إلى جانب هذا بشيوعية الأموال والنساء؟ لقد أصبحوا من جنود هؤلاء القرامطة وكانوا عصب دولتهم في البحرين، ولكن ذلك لم يكن يعني أنهم «تقرمطوا» فما كانت النحل عندهم إلا وسائل يتذرعون بها لجر المغنم والأسلاب. وكان موقفهم من الدولة التي شادوها كوقفهم من العباسيين سواء بسواء، فقد استغلوا عليها واستغلوا بالاناثوات دونها وكانوا جرثومة اضمحلها، كما كانوا جرثومة ازدهارها، وقد رأيناهم عند ما تقلص ظل القرامطة وشاخت دولة بني العباس لا يجدون غضاضة في التحول إلى الفاطميين الذين كانوا حرباً عليهم، فتألفهم هذه الدولة الفتية لتستخدمهم في حروبها الداخلية والخارجية على السواء.

(١) راجع هامش الفصل الثاني من هذا الكتاب؛ القرظي البيان والأعراب ص ٦٤ - ٦٦

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٥١٤

ويمكننا أن نقسم الغزوة الهلالية التي تمنينا إلى طورين :

الطور الأول ، وهو أدنى إلى الهجرات ، أهمها اثنتان كانت الأولى في بداية عهد العزيز بالله . فقد ذكر ابن خلدون « . . . فتحيز بنو سليم والكثير من ربيعة ابن غاصر إلى القرامطة عند ظهورهم وصاروا جنداً بالبحرين وعمان ، ولما تغلب شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأثزمهم بالصعيد وفي المدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك . . . » لكن ابن الأثير السابق له لم يورد شيئاً يتصل بنقل العزيز بالله لهؤلاء الأعراب إلى الديار المصرية . ونحن لا نستطيع أن نقطع برأى في هذه الأخبار ، إلا أن العرب قد نفضوا أيديهم من القرامطة حول ذلك الوقت وانضموا إلى الفاطميين وساروا إلى مصر في صورة الهجرة الجماعية زماماً من الجزيرة العربية وبلاد الشام . ومن البديهي أن جميع الأعراب لم ينتقلوا دفعة واحدة إلى صعيد مصر ، فقد ظل قسم من بني هلال في الشام واستقروا في حواضرهم وانفتحوا ريفه وفأجوا الأرض ففقدوا بداوتهم على الأيام وقنوا في غيرهم ولم تبق منهم إلا ذكرى في أخلاذ الأجيال المتتامة<sup>(٢)</sup> . ونحن نجد في القرن الثامن الهجري بمدينة حوران ، جبلا يسمى جبل بني هلال<sup>(٣)</sup> وبقى عدد كبير منهم في الجزيرة العربية وفي نجد بخاصة .

أما الفترة الثانية ، وكانت أواخر عهد العزيز بالله ، فقد بدأت بدخول عنصر جديد يشارك في الحوادث ، هو قبيلة بني المنتفق ولا يزال جانب منها يعيش في السهل الساحلي الشرقي للجزيرة العربية ، كما أن المؤرخين يذكرون أن جانباً آخر قد نزح إلى

(١) ج ٦ ص ١٣

(٢) مآرسيه ص ٧٥ ، المصدر السابق .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ( النسخة الإنجليزية مادة تيس عيلان ) .

المغرب الأقصى ، ونحن لا نستطيع أن نحدد على التحقيق ، العام الذي تموضت فيه أركان الدولة القرمطية بالبحرين . بيد أن ابن الأثير<sup>(١)</sup> ذكر في حوادث عام ٣٧٨ هـ . . . في هذه السنة جمع إنسان يعرف بالأصفر من بني المنتفق جمعاً كثيراً وكان بينه وبين جمع من القرامطة وقعة شديدة قتل فيها مقدم القرامطة وانهزم أصحابه وقتل منهم وأسر كثير وسار الأصفر إلى الأحسا فتحصن منه القرامطة فبدل إلى القطيف فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة . . . والراجح أن بني المنتفق هؤلاء بطن من تغلب<sup>(٢)</sup> . ويوضح لنا ابن خلدون أثر هذا العامل الجديد في نقلة القبائل التي تعيننا ، إذ يقول<sup>(٣)</sup> : « . . . لما انقرض أمر القرامطة غلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة لما أن القرامطة كانوا على دعوتهم ثم غلب بنو الأصفر بن تغلب على البحرين بدعوة العباسية أيام بنو بويه وطردها عنها بنو سليم فلحقوا بصعيد مصر . . . » .

ونحن نستخلص من هذا أن بني المنتفق هؤلاء قد تكاثروا وانتشروا في الجزيرة العربية وانتجعوا المواضع التي كانت قبل ذلك لغيرهم وأنهم أصبحوا أقوى من بنو سليم المعروفين بالعزة والمنعة حتى أكرهوهم على الهجرة الجماعية عن ديارهم في الجزيرة العربية إلى غير رجعة ثم اللحاق بأبناء عمومتهم في المدوة الشرقية من ديار مصر .

وليس معنى هذا أن الأعراب الهلالية والسلمية قد نزحوا إلى مصر في تينك الفترتين لمخسب . ذلك لأن المتصفح لتاريخ مصر يستطيع أن يضع أصبعه على هجرات أخرى اتخذت صورة الغارات غير النظامية وأنها قويت بقوة الدعوة القرمطية أو لعل الأصح أن نقول إن الدعوة القرمطية هي التي قويت بهم . ومما لا شك فيه أن الفاطمية العبيدية ، وهم شيعة علوية عملوا على الإفاضة من القرامطة فشجعوهم

(١) ج ٩ ص ٤٠

(٢) أنظر ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦٩ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ٧٢

(٣) ج ٦ ص ٧٢

والأعراب المنضوين تحت لوأئهم على الأيغال في الفتننة والعدوان على الدولة العباسية تثبيتاً لأقدامهم وبسطاً لسلطانهم على ولاية مصر الكثيرة الخيرات . فلما تحقق لهم ما أرادوا وأصبحوا يمثلون الدولة النظامية كان لابد لهم أن يقبضوا أيديهم عن القرامطة بل وأن يختلفوا وإياهم . فما كان من هؤلاء إلا أن كسروا عن أنيابهم للفاطميين وراحوا يؤيدون خصومهم القدامى العباسيين .

وقد تكررت غارات القرامطة على مصر في صورة الموجات البدوية الاعرابية ولم يكن عمادها السلمية والمهلبية وحدهم ، فقد اشترك فيها غيرهم كبنى طيء ذوى المنفعة في بلاد الشام . وبلغ من قوتهم أن خافهم جوهر الصقلي فاتح الديار المصرية قبل أن يتزلها المعز<sup>(١)</sup> . وهذا يدل على أن نزول الأعراب بمصر كان أوسع مدى من تينك الموجتين السابقتين ، وكل ما في الأمر أنهما كانتا أقوى من سواهما ، فاختصا بالذكر ولم يكن ما فعله العزيز بالله في فائحة خلافته بمصر إلا مجرد الافادة البارعة من الموقف دون أن يلقى باله إلى عواقب النقلة في الأمن الداخلي بديار مصر .

ومن اليسير أن نتبع الطريق الذي سلكته هذه القبائل إلى مصر سواء أكان ذلك من بلاد الشام أم من الجزيرة العربية وإن كنا لا نستطيع أن نتبين في وضوح مراحلها بالنسبة لهذه القبائل . ذلك لأن الأقليم الشرقي للديار المصرية قد شاهد منذ أقدم العصور الموجات البشرية الداخلة إلى مصر أو الخارجة منها مما دفع بالعلماء بعامة والجغرافيين بخاصة إلى دراسته والاحتفال بما فيه من الظواهر الطبيعية والبشرية وقد تحكمت الظروف الطبيعية في الطريق الذي سلكته هذه الهجرات . كما أن هذا الطريق كان يتغير تبعاً لمصادرها ، فإن الأقاليم الوافدين من صحراء الشام كانوا كثيراً ما يتخذون السهل الساحلي مارين بالطرف الشمالي من شبه جزيرة سيناء . أما الهجرات

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٥٣ ، مارسية ص ٧٤

الآتية من نجد والحجاز فلم يكن هناك ما يدعو إلى ذهابها إلى أقصى شمال شبه الجزيرة ما دام هدفها الرئيسي هو الوصول إلى دلتا النيل<sup>(١)</sup>.

ولا مشاحة عندنا في أن الهلالية الذين انتقلوا أو نقلوا إلى مصر قد ساروا في السبيل المطروقة قبلهم منذ أمد بعيد ، فقد اتخذوا ما نستطيع أن نعدده أقدم طريق في العالم وهو المعروف عند المصريين القدماء بطريق حورس والمذكور في التوراة بطريق الفلسطينيين والمشهور عند العرب بدرب السلطان<sup>(٢)</sup> وتكاد تجمع المصنفات الجغرافية العربية على خطوطه البارزة وإن اختلفت إلى وصفه وهي لا تختلف فيما بينها إلا في القليل من التفاصيل وهي ترسمه من الشام متجهاً إلى السهل الساحلي ماراً بعسقلان فغزة ثم رفح فالشجرتين فالعريش<sup>(٣)</sup> ثم إلى العذيب فالفرما . وترسم الطريق المقابل له من بلاد العرب بأنه يخرج من حافة الصحراء إلى العقبة والنخل ثم يخترق شبه جزيرة سيناء إلى السويس<sup>(٤)</sup> . ومما تجدر الإشارة إليه أن بطائح بحيرة المنزلة كانت قد اتسعت رقعتها بعد الفتح العربي وكونت صفحة مائية متصلة من بحيرة المنزلة في الشمال إلى بحيرتي البلاح والزار في الجنوب مما جنح بالهلالية ومن سبقهم من العرب إلى تعديل الطريق بعض الشيء ناحية الجنوب بحيث يسير بمحاذاة أطراف الدلتا الشرقية إلى فتحة الوادي المعروف بالطميلات مخترقين هذا الوادي إلى شرق الدلتا<sup>(٥)</sup> . ومنها تتجه إلى الأراضي الخصيبة نحو الغاضرة (أى السعيدة)<sup>(٦)</sup> .

(١) ابراهيم أ . رزقانة . الجغرافيا التاريخية لشرق الدلتا ص ٣٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٩٦

(٣) اليعقوبي . البلدان ص ٩١

(٤) أنظر تفصيل هذا الطريق في ابن خرداذبة . المسالك والممالك ص ١٤٩ ، الأدرسي

نزهة المشتاق ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، قدامة الخراج ، ص ١٩٠

(٥) ا . ا . رزقانة ص ٣٢٩ ( المصدر السابق ) .

(٦) يؤخذ من أقوال قدماه أن الغاضرة لقب على فاتوس . الخراج ص ٢١٩ ، ٢٢٠

ثم إلى بلبيس فالفسطاط<sup>(١)</sup> ثم يستقيم الطريق مع مجرى النيل مصعداً إلى النوبة .  
وليس ثمة شك في أنهم لم يسيروا في الطريق الصحراوي القديم المعروف بطريق  
الحجاج لأن هذا الطريق أجرد ما حل به عيون قليلة متباعدة<sup>(٢)</sup> . وهو إذا صلح لسير  
الأفراد أو الجماعات المتفرقة أو قوافل التجار ، فإنه لا يصلح لسير جماعات هائلة  
كهؤلاء الهلالية جاءوا بأنعامهم وحوائبهم ونساءهم وأطفالهم .

ولم يكن الهلالية والسلمية وخدم الذين ينتجعون شرقي الديار المصرية . بل لم يكن  
القيسية وخدمهم هم الذين ساروا في هذا الدرب وشاركوا المصريين خيرات بلادهم ،  
بل كانت هناك قبائل من عرب الجنوب اتخذت محلاتها في ذلك الحرف وما يليه  
إلى الصعيد قبل الهلالية بأمد ليس بالقصير . ويعطينا ابن خلدون<sup>(٣)</sup> والمقرزى<sup>(٤)</sup>  
صورة على شيء من الوضوح لتوزيع القبائل البدوية في مصر وهذه الصورة ، وإن صرت  
عليها السنون بين نزول الهلالية وبين تسجيلها ، إلا أنها يمكن أن تنطبق في مجملها  
على الحالة التي كانت عليها منازل هذه القبائل في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الرابع  
إلى منتصف القرن الذي يليه واعتمد عليها الجغرافيون المحدثون في أبحاثهم<sup>(٥)</sup> .  
فقد نزل الصعيد الأعلى عند أسوان وما بعدها بنو جهينة إحدى بطون قضاة  
وانتشروا في إقليم النوبة وصعدت جماعات منهم إلى السودان والحبيشة ونزل الصعيد  
الأعلى أولاد الكنز وينتسبون إلى ربيعة بن معد ، ومن أسوان إلى قوص عاش  
الجعافرة الذين يزعمون أنهم من الأشراف وأن جددهم جعفر بن أبي طالب وأغلبهم  
تجار وهم ينتشرون إلى الصعيد الأوسط وإلى جانبهم من قریش بنو طلحة وبنو الزبير

(١) ابن خرداذبه . المسالك والممالك ص ٨٠

(٢) أ . أ . رزقانه ص ٣٢٠ ( المصدر السابق ) .

(٣) ج ٦ ص ٦٢٥

(٤) البيان والاعراب ص ٢٠ وما بعدها .

(٥) A Study of Ethnic stocks : Abbas Ammar

وأخلاق تنتسب إلى بنى عمر و بنى أمية . وتوزع منازل قيس في شرقى الدلتا وجنوبها ،  
فقرارة قيس في أرباض القاهرة و قليوب وما حولها . وسليم وهلال في منطقة  
متسعة تقوسطها بلبيس وإن انتقلت بطون منهم إلى الصعيد وزاجتهم نلم وهم يمانية  
في الحوف الشرقى واستقر كثير منهم فيه ورغبوا عن البداوة إلى الزراعة ، أما جذام  
فقد توزعتهم الجزر الخضراء المتفرقة في الشمال الشرقى لدلتا النيل وأخذت بطون  
من طيء تنتقل بين الشام ومصر طلباً للكلا والمرعى . ومن القازم إلى يذبع قبائل  
من جهينة وقضاة وتفرقت بطن من جذام تعرف بالعبايدة في الجنوب الشرقى للحوف .

وانعكست الآية على الدولة الفاطمية بقدم هؤلاء الأعراب الهلالية والسلمية  
أو استفادتهم إلى صعيد مصر والعدوة الشرقية من النيل ، فقد كان المقصود إضعاف  
الفرامطة ومن إليهم من خصوم الدولة والاعتماد عليهم في إكراه أهل البلاد المفتوحة  
عنوة ولكن هؤلاء الأعراب لم يستطيعوا الخروج عن طبائهم فنقلوا إلى الديار  
المصرية ما اعتادوا من شرائع الصحراء في الثارات والحقود وبخاصة ما كان منه  
بين زغبة ورياح<sup>(١)</sup> ، كما أنهم استطالوا على السكان الوادعين يدهمون ديارهم ويعتدون  
على محاصياتهم ويسلبون أموالهم ويأخذون أنعامهم ودوابهم غصباً ويقطعون الطريق  
على التجار ويستطيون بالأذى على من يقربهم أو يقربوه<sup>(٢)</sup> حتى أصبحت الدولة  
الفاطمية تواجه في جماعتهم ، المشكلة التي تواجهها كل دولة نظامية .

وقبل أن نمضى في تتبع الحوادث ، نرى لزماً علينا أن نعرض لهذا السؤال :  
لماذا غلب اسم هلال على هذه القبائل ؟ ونحن نعلم أنهم لم يكونوا جميعاً هلالية ،  
فقد شاركهم بنو سليم ولم يكونوا أقل منهم عدداً وأهون شأنًا ، بل لعلمهم كانوا أضعف

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٨٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٣

جانباً وأبعد صوتاً ، كما أنه قد انخرط في مجموع هذه القبائل وحدات لا تشترك معها في القربى وفيها مضرية غير قيسية ويمانية قحطانية . فقد ذكر ابن خلدون <sup>(١)</sup> : « . . . وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان وجشم بن معاوية بن بكر بن هوازن وصالول بن صرة بن صعصعة بن معاوية والمعتل من بطون اليمنية وعمرة بن أسد بن عامر بن صعصعة وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وطروود بطن من فهم بن قيس . . . » . ونحن نرجح أن ذلك إنما يرجع لانتقال الرياسة إليهم وقتذاك ، فما نعلم أنها كانت فيهم أيام الجاهلية أو صدر الاسلام إلا قليلا . وابن خلدون صريح في النص على وجود الرياسة فيهم ، إذ يقول : « . . . إنهم كلهم متدرجون في هلال وفي الأثبج منهم خصوصاً لأن الرياسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال . . . » <sup>(٢)</sup> . وهناك عامل مساعد على استئثارهم بالشهرة المتأخرة لا يمكن إغفاله بحال ، وهو عامل بياني يفصل بالاسم « هلال وسهولته ودورانه على الألسنة واتصاله بالنبر الذي يدل عليه » <sup>(٣)</sup> .

ولنتوجه بأنظارنا نحو الشمال الغربي لدلتنا النيل حيث مضارب بني قرة وهم الذين يزعمون أنهم من ولد هلال وإن اتخذوا مقامهم في هذا الاقليم قبل قدوم إخوتهم في العدوة الشرقية بأجيال وكانت منازلهم آخر ما وصل إليه الأعراب إذا أخذنا بقول ابن خلدون <sup>(٤)</sup> وكان قرارهم في الجبل الأخضر وما يليه من برقة . ولم يستقروا ويتحولوا عن البداوة على الرغم من طول مقامهم في أرض خصيبة وخالطهم لأقوام فلاحين ، وما نشك في أنهم كسائر البدو يكرهون النظام ويتربصون بالسلطان ويعيشون على الغنيمة . ولا يحتفظون بالمذاهب الدينية إلا بمقدار اتصالها بمنافعهم

(١) ج ٦ ص ١٦ ، ١٧

(٢) ج ٦ ص ١٧

(٣) أنظر تفصيل ذلك في الحديث عن الشطر بآخر الباب الرابع من هذا البحث .

(٤) ج ٦ ص ٤ ، ٥

وتبربرها لفعالهم . وقد ذكر المؤرخون أنهم استجابوا إلى أبي ركوه<sup>(١)</sup> في شق عصا  
للطاعة للعبودية الشيعية والبيعة للقمم العباسي ، وكانوا مع نفر من المعارضين الساخطين  
حرباً عواناً على الدولة الفاطمية ، وبلغ من تمسهم في القضاء على سلطاتها ، أنهم  
صالحوا زناة وتناسوا ، إلى حين ، ما كان بين أولئك وهؤلاء من ثارات ودماء .  
واستهانت الدولة بهم أول الأمر حتى غلبوا عاملها واستقلوا باقليم برقة ، فأدركت أن  
الأمر جد فأرسلت الكتائب إليهم فنبت بالهزيمة فما كان من العرب ومن انضم  
إليهم من كتامة وعلى رأس الجميع أبو ركوه إلا أن طمحوها في ملك مصر ذاتها فبعثوا  
السرايا إلى أرض الصعيد ثم تحولت هذه السرايا إلى غزو حقيقي . وكانت الدولة  
الفاطمية قد استشرقت بعد أن اطمأنت في وادي النيل وجعلت قصبها في مصر .  
فأرسلت إلى الشام تكتب الكتائب وأطعت بعض العرب الذين في الجانب الشرقي  
وبذلت الأموال ونهضت تقاوم هذه الغزوة بكل وسيلة حتى أوقعتها وفرقت جموعها  
وأمرت قائدها عام ٣٩٧ هـ . ويقال إن الفضل الأكبر في ذلك إنما يعود إلى بني قرة  
ومن إليهم ، فقد انساقوا إلى أبي ركوه انسياقهم إلى كل ثائر طمعاً فيما تجره الفتنة  
من المغنم والأسلاب ، لا إيماناً بذهب أو إخلاصاً لعقيدة أو تحقيقاً لمثل . فلما بذلت  
لهم الأعطيات وفرقت عليهم الأموال آثروا السلامة وقعدوا عن نصرته وكانوا  
السبب في هزيمته كما كانوا السبب في قوته واتساع سلطانه<sup>(٢)</sup> .

وإذن فقد عانت الدولة الفاطمية الأمرين من هؤلاء العرب الهلالية شرقي مصر  
وغيرها على السواء حتى أصبحوا مشكلة من أهم المشكلات التي تواجهها وكان قد بدأ

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أنه من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ويقرب في النسب  
من المؤيد هشام ابن الحاكم الأموي صاحب الأندلس وأنه من هرب من الأموية أيام المنصور  
ابن أبي عامر، ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ — ١٤١

الأمر في دست الحكم يضطرب ويتقلقل تبعاً لأهواء القادة والوزراء والمشيرين بل وأمهات الخلفاء من بنات النصارى أو اليونان<sup>(١)</sup>. وأخذت رقعة الدولة تنكش على مر الأيام في وقت يصدق الصليبيون فيه بالدول الإسلامية جميعاً ، ولا عبرة بامتداد النفوذ الفاطمي العاوي ناحية الشرق ، فقد أخذت مدن الشام تقاومه ووقف بنو صلجوق حجر عثرة في سبيل اتساعه . وما يقال عن الخطبة للعبيديين في مساجد بغداد ، لا يدل على نهضة الدولة بقدر ما يدل على نهضة قائد تركي واحد ، عمل باسمها فترة ثم انحرف عنها . ويمكن أن يقال ، دون أن يكون في هذا القول غلو أو سرف ، إن رقعة الدولة عند ما ولى المستنصر الأمر فيها لم تكن تتعدى الديار المصرية إلا قليلاً<sup>(٢)</sup> .

ولكى ندرك مدى استشراق الدولة الفاطمية التي جاءت من المغرب ، علينا أن نذكر أنها قامت أول ما قامت على أكتاف قبيلتين بربريين قويتين أو بتعبير أدق مجموعتين متسمتين من القبائل البربرية تعرفان في التاريخ بكتامة و صنهاجة . قام الملك الفاطمي بالأولى وعاونت الثانية عليه . وشامت الظروف أن ترتبط صنهاجة بكتامة منذ القدم إذ جمعتهما أوامر واحدة من الدم والجوار واللغة المشتركة والحياة المتشابهة والتراث الموحد وظهرتا في التاريخ مرتبطين متجاورتين متلازمتين ربط القدر بين مصيريهما<sup>(٣)</sup> ، ولا حاجة بنا إلى الغوص على أنسابهما ، فقد فصلها ابن خلدون<sup>(٤)</sup> . وحسبنا أن نشير هنا إلى أن أمير صنهاجة بلكين بن زيري هو الذي تولى عن الفاطميين أمر المغرب بعد رحيلهم إلى مصر فأسس بذلك دولة بربرية موالية للفاطميين . ولكن هذه الدولة أخذت تقوى شيئاً فشيئاً حتى أصبح ولاؤها للفاطميين إسمياً أو يكاد ،

(١) A History of Egypt, The Middle Ages : Stanly Lane Poole من ١٢٧

(٢) S.L. Poole المصدر السابق ص ١٣٧

(٣) حسن محمود : الدولة الزيرية ص (ض) عن Les Berbères : Pournel ج ٢ ص ١٠٤

(٤) ج ٦ ص ١٤٨ وما بعدها .

تقتصر مظاهره على الخطبة والسكة وقبول كتاب الولاية وتبادل الهدايا بين الطرفين<sup>(١)</sup>. فلما بلغت أوجها أيام المعز بن بادين استشعرت القدرة على تمام الاستقلال عن الدولة العبديّة الشيعية فقطع سلطانها الصيغة العلوية من الأذان وجهر بالمذهب السني واتصل بخليفة بني العباس القائم بأمر الله وأمر بالخطبة له على منابر المهديّة والقيروان بدلا من المستنصر بالله الفاطمي<sup>(٢)</sup>.

في هذه الظروف المحيطة بالدولة الفاطمية بدأ الطور الثاني للهجرة الكبرى ، وهو أدنى إلى الغرورة أو الغارة في مظهره . وكان في صدر الفترة الطويلة التي حكمها المستنصر بالله . وقد ناقش صاحب رسالة الدولة الزيرية<sup>(٣)</sup> تأريخ إعلان استقلالها عن الفاطميين بقطع الخطبة لهم واستعرض آراء المؤرخين التي تتذبذب بين عامي ٤٣٣ ، ٤٤٠ هـ وبين أن ذلك قد تم على مرحلتين ، أقيمت الخطبة في الأولى بمسجد القيروان دون أن يتعرض الخطباء للخليفة الفاطمي بسوء ، وكانت عام ٤٣٥ هـ . والثانية عام ٤٤٠ هـ . وفيها سب الخطباء الفاطميين على المنابر ولم يكتب صاحب القيروان الصنهاجي بأن يجهر باستقلاله على هذا الوجه بل بالغ في ذلك وأعلن ، ف ضرب السكة باسمه ، ولم يدرج فيها صيغة « على ولي الله » التي تقسم بها سكة الفاطميين وحرّم على رعيته التعامل بغير مكنة<sup>(٤)</sup> كما اصطنع السواد في اليمنود والرايات وكسى التشريف لنفسه وأكابر رجاله<sup>(٥)</sup>.

وسواء أكان تصرف المعز الصنهاجي عن إيمان راسخ بالمذهب السني ، أم عن نزعة قومية تطالب الاستقلال والعزة فإنه قد نفّض يديه تماما من الخلافة العبديّة

(١) S.L. Poole المصدر السابق ص ١٢٧

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٣) حسن محمود : المصدر السابق ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ص ٢٨٩ ، ٢٩٠

(٥) المصدر السابق ص ٢٩١ ، ٢٩٢

وتجاوز ذلك إلى خصومتهم وعدم الاكتراث بما تجرده عليه هذه الخصومة من حرب وقد كفاتنا ابن خلدون مؤونة التحقيق التاريخي عند ما ذكر ما اشتجر بين الدولتين من صراع شديد ، فقد بين أنه لم يكن في عهد الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني ، وإنما كان أيام الوزير أبي محمد الحسن بن علي اليازوري<sup>(١)</sup> . والظاهر أن هذا الالتباس الذي وقع فيه المؤرخون والذي أشار إليه ابن خلدون يرجع إلى ما كان بين المعز بن باديس وبين الأول من مكاتبات لانحوض في تفصيلها . ويذكر المؤرخون كذلك قصة النزاع الذي قام بين صاحب المغرب ووزير الخلافة الفاطمية اليازوري ، وخلاصتها أن المعز لم يخاطبه بما كان يخاطب الذين قبله من الوزراء ، فقد كان يخاطبهم بعبارة « بعبده » فقال عنها في مخاطبة الوزير الجديد بعبارة « بصنيعته » احتقاراً لشأنه واستخفافاً به لأنه ، كما يقول هؤلاء المؤرخون : « لم يكن من أهل الوزارة ولكنه كان من أهل البناية والفلاحة »<sup>(٢)</sup> ، فعظم ذلك عليه وعاتبه وطلب إليه أن يرجع إلى ما كان من آداب المراسلة في ذلك العهد . فلما أبى صمم الوزير ليتمتع منه ، وشرع يوقع بين الخليفة وبينه وأغرى العرب به . ولم يكن الأمر يحتاج إلى هذا الغناء كله من المؤرخين في البحث عن سبب مباشر يدفع إلى الاصطدام ، فقد أعلن المعز استقلاله بما كان يأتيه من مظاهر العداوة الصريحة للخلافة الفاطمية التي أغضت عنه أول الأمر ، كما أغضت قبل ذلك عن أبي ركوه وبني قوه ، وكانت مشغولة عنه بما تواجه من مشكلات المشرق ، ولكنها في الوقت نفسه لا تترك فرصة تمر للإيقاع به إلا انتهزتها .

ولم يكن يبدو من العرب الهلالية الذين استقروا في العداوة الشرقية من النيل وصعيد مصر أي ميل إلى الاستقرار والجنوح إلى الفلاحة واتخاذ المير بيوتاً ومنازل ،

(١) ج ٦ ص ١٣ ، ١٤ ، وقد ذكر فيه اسم الجرجاني بدلاً من الجرجاني .

(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٧

(٣) ص ٣٠٠

والظاهر أن الفاطميين كانوا يراقبونهم بعين ساهرة إلى جانب الإحسان إلى أشياخهم وتقريب أمراءهم واصطناع كثير من عشائهم في جيوشهم . ونحن نفهم من عبارة أوردها ابن عذارى<sup>(١)</sup> أن الفاطميين كانوا يحولون بين هؤلاء الأعراب وبين عبور النيل إلى العدو الغربية ، وهذا هو الذى دناهم إلى أن يمشوا فى منازلهم الشرقية ما يقرب من قرن كامل حتى تكاثروا وانضم إليهم غيرهم من أبناء عمومته ومن الأخطا والسواقط من البدو ، وليس يعقل أنهم بعد أن أصبحوا على هذه القوة الجماعية التى لا تدفع ، أن يحول بينهم وبين النقلة ، إذا أرادوها ، أحد الناس كائناً من يكون ، وبخاصة وهم يلمون أن فى الجانب الغربى إلى برقة ينتشر أخوة لهم وأبناء عم . ولو صححت الروايات التى يذهب إليها كثير من المؤرخين وهى أن البازورى بعد أن أصاح بين أشقات هذه القبائل بشخصه أو بنائب عنه أذن لهم باجتياز النيل وحرصهم على عدوه وعدو الدولة المعز بن باديس ومنح كل فرد منهم ديناراً وبهراً ووعدهم بالإمداد والمثونة<sup>(٢)</sup> فكان ذلك الإغراء إفادة بارعة من واقع لا شك فى حدوثه .

ويفصل ابن خلدون أسماء القبائل التى اجتازت النيل وولت وجهها شطر برقة والمغرب فيقول : « . . . وشعوبهم لذلك العهد . . . زغبه ورياح والاثبيج وقره وكلهم من هلال بن عامر وربما ذكر فيهم بنو عدى ولم نقف على أخبارهم وليس لهم لهذا العهد حى معروف فلمعلمهم دثروا وتلاشوا وافترقوا فى القبائل ، وكذلك ذكر فيهم ربيعة ولم نعرفهم لهذا العهد إلا أن يكونوا هم المعقل كما نراه فى نسبهم وكان فيهم من غير هلال كثير من فراره وأشجع من بطون غطفان وجشم ابن معاوية بن بكر ابن هوازن وسلول بن صره بن صعصعة بن معاوية والمعقل من بطون اليمنى وعمرة

(١) ص ٣٠٠

(٢) ابن عذارى : ص ٣٠٠ ، ابن الأثير : ج ٩ ص ٢٨٨ ، ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤

ابن أسد بن ربيعة بن نزار وبني ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر  
ابن صعصعة وعدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان وطرود بطن من فهم بن قيس...<sup>(١)</sup>  
وتحركت جموعهم متجهة إلى الشمال الغربي ميممة إلى الشعبة الهلالية الأخرى  
التي ذكرناها آنفاً المعروفة ببني قره الدين ينسبون إلى عبد مناف بن هلال والذين  
أشرنا إلى بعض ما كان بينهم وبين الدولة الفاطمية من وقائع تدل على أنهم كانوا قوة  
يعمل لها حساب في برقة وما يليها . ولم يكن ولاؤهم لأي من الدولتين المصرية  
أو المغربية خالصاً . فكما انتقضوا على الحاكم بأمر الله أكثر من مرة ، كانوا  
يقطعون التجارة بين الامارة الصنهاجية وبين مصر حتى بلغ منهم أن استاقوا الهدايا  
المرسلة إلى صاحب المهدية<sup>(٢)</sup> .

ونستخلص مما ذكره المؤرخون أن هذا الطور الثاني المتخذ شكل الغزوة قدم  
على دفعتين . كانت الأولى — على ما يقال — بإغراء الفاطميين في شخص وزيرهم  
اليازوري . وكانت الثانية هجرة لا إكراه ولا ترغيب فيها ، أقدم عليها الأعراب  
ليشاركوا فيما ناله أخوتهم وأبناء عمومتهم من فناء وغنيمة . بل إن بعضهم ليذهب  
إلى أن الفاطميين أدركوا قوة هذه الرغبة في النقلة الثانية ففرضوا على أفرادها ما يشبه  
المكوس وأخذوا عن كل رأس دينارين ، أي أنهم أخذوا بالشمال ماسبق أن أعطوه  
لأخوتهم باليمن<sup>(٣)</sup> ويفهم مما ذكره ابن خلدون<sup>(٤)</sup> أن بني سليم كانوا العنصر الغالب  
في الهجرة الثانية كما كانوا في الطور الأول ، فهم من بطونهم التي رأها في أيامه :  
زغب وديب وهبيب وعوف . ونحن نوافق مارسيه<sup>(٥)</sup> فيما ذهب إليه من أن هؤلاء

(١) ج ٦ ص ١٦ ، ١٧

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٧

(٣) المصدر السابق ص ١٤

(٤) المصدر السابق ص ٧٢ و ٧٣

(٥) ص ٨٨ ، ٨٩

الأعراب جميعاً على اختلاف أنسابهم كانوا قد تبرموا بالحياة في مصر وكان لا بد لهم من الهجرة إلى بيعة أخرى تنطلق فيها غرائزهم البدوية . والراجح أن بني قرة كانوا أكثر إغراء لإخوانهم من الخليفة ووزيره . فليس من شك أن اتصالاً ما كان قائماً بين عرب العدوتين الغربية والشرقية ، وأن ما كان يتردد في مضارب البدو في برقة من أساطير الكنوز القديمة المظورة في إفريقية وما وراءها ، كان يجد صداه البعيد في نفوس الأعراب جميعاً أياً كان مقامهم من النيل <sup>(١)</sup> .

واسكننا في الوقت نفسه نخالف هؤلاء المؤرخين ونرى أن هذه الهجرة — أو الغزوة إذا شئت — إنما كانت على موجات بشرية متتابعة ، فان ذلك أدنى إلى منطلق النقلة الجماعية فلم يكن الهلالية جيشاً نظامياً يؤمر بالحركة فيأمر أو إنما كانوا قبائل كثيرة وكان انتقالم ككل هجرة جماعية بطيئاً متثاقلاً ولم يتم على دفعة واحدة أو دفعتين فقد استغرق بلوغهم برقة أمداً ليس بالقصير لعله يتجاوز ثلاثة أعوام ، كما أنها لا يمكن أن تكون انتقالاً مفاجئاً لأن ذلك لا يستقيم مع الحياة القبلية التي تستلزم النقلة الجماعية وتمجاوز الرجال القادرين على حمل السلاح إلى الشيوخ والنساء والأطفال والدواب والمتاع <sup>(٢)</sup> . أضف إلى ذلك أن المعز بن باديس لم يستشعر الخوف لقدم الأفواج الأولى من هؤلاء الأعراب ، مما يرجع بأن تغريبهم كانت فطرية طبيعية لا يكاد يشوبها إكراه أو اصطناع <sup>(٣)</sup> . ولسنا ندرى لماذا لم ينظر المؤرخون إلى الموضوع من زاوية أخرى ، وهي أن مصلحة الدولة في إبقاء هؤلاء العرب حيث هم في العدو الشرقية لا تقل خطراً عن إكراههم إلى النقلة غرباً ، ذلك أن هؤلاء الأعراب كانوا يستطيعون الاحتفاظ بالتوازن كلما اختل بين الجند من الترك أو السودان

(١) مارسية : المصدر السابق ص ٨٨ و ٨٩

(٢) مارسية : المصدر السابق ص ٩٠

(٣) حسن محمود : المصدر السابق ص ١٨٩

أو المغاربة وكثيراً ما كان يستشرى كل فريق على الآخر، كما أن انشغال الدولة بمشكلات الشرق كان يقضى احتفاظها بهم في مواضعهم وعدم السماح لهم باجتياز النيل .

غربت القبائل الهلالية إذن، ونزحت عن مصر، بيد أن هذه التغريبة لم تشمل الهلالية قاطبة، إذ بقيت منهم جموع قليلة بالقياس إلى الذين رحلوا، لا تزال آثارهم البشرية شاخصة إلى يومنا هذا في الشرقية<sup>(١)</sup>، حيث تجمعوا منذ أمد طويل كما شاهد ابن خلدون<sup>(٢)</sup> بقاياهم في الصعيد الأعلى شرق النيل لم يجزود لأن الظروف الطبيعية أقصتهم إلى هناك . فمن المظاهر الواضحة أن الوادي الخصيب لا يتسع في الجانب الشرقي للنيل إلا عند الصعيد الأعلى . وهذا دعاهم إلى الإقامة والاستقرار والتطور من البدو الضاربين فيما يشبه الصحراء إلى فلاحين يزرعون الأرض ويتجرون في غلاتها، وإن احتفظوا بأثارة من الفروسية تبدو في إجادتهم ركوب الخيل وما يشترج بينهم من فنن وحروب ومنها ما يقع بين أحياء القفر .

اكتظت إذن برقة بالأعراب الوافدين عليها عشيرة في أئمة عشيرة إلى من كان فيها من بني قرة أصحاب المنعة والغارة . ونحن لم ندس بعد ما ذكره ابن خلدون من أن برقة هذه كانت آخر منازل العرب ناحية الغرب، فالفتح العربي الأول لم يغير من الصورة البشرية العامة لشمال أفريقيا، ومبادرة البربر إلى الاستجابة لمختلف النحل والمذاهب إنما يدل على تمكن النزعة الاستقلالية من نفوسهم، كما أن قيام الدولة العبيدية الشيعية كان تعبيراً صارخاً عن هذه النزعة، ولكن هذه الدولة لم تستوعب قبائل البربر جميعاً، بل إنها ما كادت تنتقل ناحية الشرق حتى انفصل عنها هؤلاء البربر وتنازعوا الأمر فيما بينهم ولم تستطع قبيلة من قبائلهم الاستئثار بالنفوذ، ولكننا مع هذا نستطيع أن نتبين الخططين البارزين في تلك الربوع، فقد حملت صنهاجة

(١) Abbas Ammar : المصدر السابق .

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ٥

محل كتابه وإن انقسمت إلى شصبتين، تحكم الأولى في القيروان، وتحكم الثانية في القلعة وإلى جانبهم زفانة التي كانت موالية لأمرء بني أمية في الأندلس، لاحقاً فيهم، ولكن كراهة منهم للفاطميين أو بتعبير أدق لصنهاجة ومن إليها. ثم ما لبثوا أن جبروا هم أيضاً باستقلالهم<sup>(١)</sup>.

ويقال إن هؤلاء الهلالية تقارعوا على البلاد أول قيامهم بتفريدهم هذه وقسموها على أساس الشعبين الكبيرين اللذين تتألف منهما صائر قبائلهم، وهما سليم وهلل، اختص الأول بالشرق والثاني بالغرب<sup>(٢)</sup>، ولكن هذه الرواية لا تستقيم مع الهجرة غير النظامية التي كانوا يسرون في مجالها، وأغلب الظن أنها انتحلت بعد حدوثها يزن لأنها تتفق مع النتائج التي أنهت إليها الأحداث لا مع مقدماتها. ولما غربت جوعهم بقيت منهم بقية في برقة أغلبها من سليم وأحلافها رواجه وناصره وعمره<sup>(٣)</sup>.

وكانت المرحلة الأولى في هذه التفريفة ديار المعز بن باديس الصنهاجي. ويتفق كثير من المؤرخين<sup>(٤)</sup> على أن اتصال العرب الغازين أو المهاجرين بهذه الدولة الزيرية كان ودياً أول أمره لأن المعز أراد أن يستظهر بهؤلاء العرب على قبيلة من صنهاجة في داخل إمارته وعلى منافسه في خارجها الذي يمثل الشعبة الثانية من الملك الصنهاجي في القلعة. وهذا هو الباعث الذي دعا العرب إلى التجمع في أرباض حواضره، ولكن المهادنة بينه وبينهم لم تكن لتستمر طويلاً على الرغم من إحسانه إليهم وإصهاره إلى أميرهم، فقد أتوا على كل ما تصل إليه أيديهم إطعاماً لذواتهم ودوايهم حتى اشتد بلاؤهم ولم يكن من مدافعتهم بد، فجمع المعز عسكره وعبيده واستنفر عمه صاحب القلعة،

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة بربر ( الترجمة العربية ) ج ٣ ص ٥٠٥ ، ٥٠٦ وكان

المادة هو رينيه باسى René Basset

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤

(٣) المصدر نفسه ص ١٤

(٤) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤ ، ابن عذارى : ص ٣٠١ ، ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٨٨

وإن كانت يديها خصومة ، فكتب له الكتاب واستنثت ببعض أصراء وثانة فشدوا أزره حتى ليقال إن جيشه بلغ ثلاثين ألف فارس<sup>(١)</sup> وبيالغ بعض المؤرخين ويذهب إلى أنهم كانوا نيفاً وثمانين ألفاً<sup>(٢)</sup> . أما العرب فلم يكونوا أكثر من ثلاثة آلاف فارس<sup>(٣)</sup> . والتحم الفريقان عند حيدران فدارت الدائرة على المرز وجنده ومنوا بهزيمة منكرة وغنم العرب كل ما كان معهم « فلم يخلص لأحد منهم عقل بعير<sup>(٤)</sup> » .

ومن الملاحظ التي تستوقف النظر في هذه الواقعة أن أعقاب عرب الفتح الاملاحي الأول الذين كانوا في جيش المرز تخاذلوا وانضموا إلى الهلالية بفعل العصبية التي تربط بينهم<sup>(٥)</sup> ثم كانت وقعة القيروان فقد حاصرها العرب وأهلكوا ما حولها من الضواحي والقرى ونهبوها حتى فر أهلها إلى تونس في رواية وإلى المهديّة في رواية أخرى<sup>(٦)</sup> ولم تجد المرز الأسوار والمساح التي شادها للوقوف في وجه العرب الذين أخذوا يغلبون على القرى المحيطة بالقيروان ويهدمون الحصون والقصور ويقطعون الثمار ويتلفون الأنهار<sup>(٧)</sup> وغلبت العرب على سائر مدن المغرب . ولكنهم كانوا يؤثرون الحياة في الأرياض والضواحي ويملكون على الأعمار أصراء من أهلها يرهبونهم ويدفعون الإتاوة لهم . فعلوا ذلك بياجة وتونس وقسنطينة واقتسموا بلاد أفريقية فيما بينهم ، فكان لزغبة طرابلس وما يليها ، ولرداس بن رباح باجة وما يليها<sup>(٨)</sup> . ويضيف ابن خلدون أنهم اقتسموا البلاد ثانية فكان لهلل من تونس إلى الغرب<sup>(٩)</sup>

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ .

(٢) ابن عذارى : ص ٣٠٢ .

(٣) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ ، ابن عذارى ص ٣٠٢ .

(٤) ابن عذارى : ص ٣٠٢ .

(٥) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) ابن الأثير : ج ٩ ص ٣٩٠ .

(٨) المصدر السابق .

(٩) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ .

والسكنة لم يبين لنا من الذين غلبوا على الربوع من تونس إلى الشرق . وأراد المعز النجاة بنفسه فأنكح ثلاثة من أمراء الهلالية ثلاثاً من بناته<sup>(١)</sup> وحاول تيمم بن المعز صاحب الأمر في المهديّة ، أن يستعين بأصهاره العرب فأبت ذلك عليه رعيته وجنده من السودان فدخل الهلالية القيروان واستباحوها واستصفوا ما كان لآل بلسكين في قصورها من النفائس والذخائر . . . .<sup>(٢)</sup>

ثم ارتحلوا إلى المهديّة فزلوها وضيقوا الخناق عليها بمنع المرافق وافساد السابلة . وإذا كانت الدولة الزيرية الصنهاجية قد استمرت بعد هذه الأحداث الجسام فالفضل فيه لمهادنتها العرب وتقريبها منهم حتى أصبحت إمارة في حمايتهم .

وانتقلت جموع الهلالية إلى المرحلة الثانية من هذه التفرقة فتجاوزت صنهاجة إلى زنانة ونازعوهم على الضواحي واتصلت الحروب بينهم . وأهم وقائعهم ما كان منها مع صاحب المسمان وهو من أعقاب محمد بن خزر<sup>(٣)</sup> ووزيره أبي سمعدى خليفة اليفرنى والتي انتهت بقتل هذا الأمير وسادات قومه ثم استمرت المشاهد والأيام بين الهلالية وزنانة سجالات ولم يكن هذا القبيل البربري أحسن حظاً من صنهاجة . ويذهب ابن الأثير إلى أن غزوة العرب زنانة لم تكن من وحيهم وإنما كانت من وحي صنهاجة المغرب الأوسط أصحاب القلعة ، فقد ذكر أن بلسكين قاد العرب في حربهم زنانة ولم يزد على أنه غلبهم وأحدث فيهم مقتلة عظيمة<sup>(٤)</sup> وأما ابن خلدون فقد سكت ولم يشر إلى شيء من ذلك في حديثه عن أصحاب القلعة هؤلاء . ومهما يكن من شيء فإن هذه الشعبة الصنهاجية الزيرية في المغرب الأوسط لم تنقطع لحظة عن سدافة

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٥ و ١٦

(٢) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٦

(٣) وكانت ديار بني خزر هؤلاء تمتد على سهول أوربة وشرق سراكش وكانوا أقبالا للأمويين في قرطبة . . . دائرة المعارف الإسلامية . النسخة الإنجليزية . ج ٤ مادة زنانة .

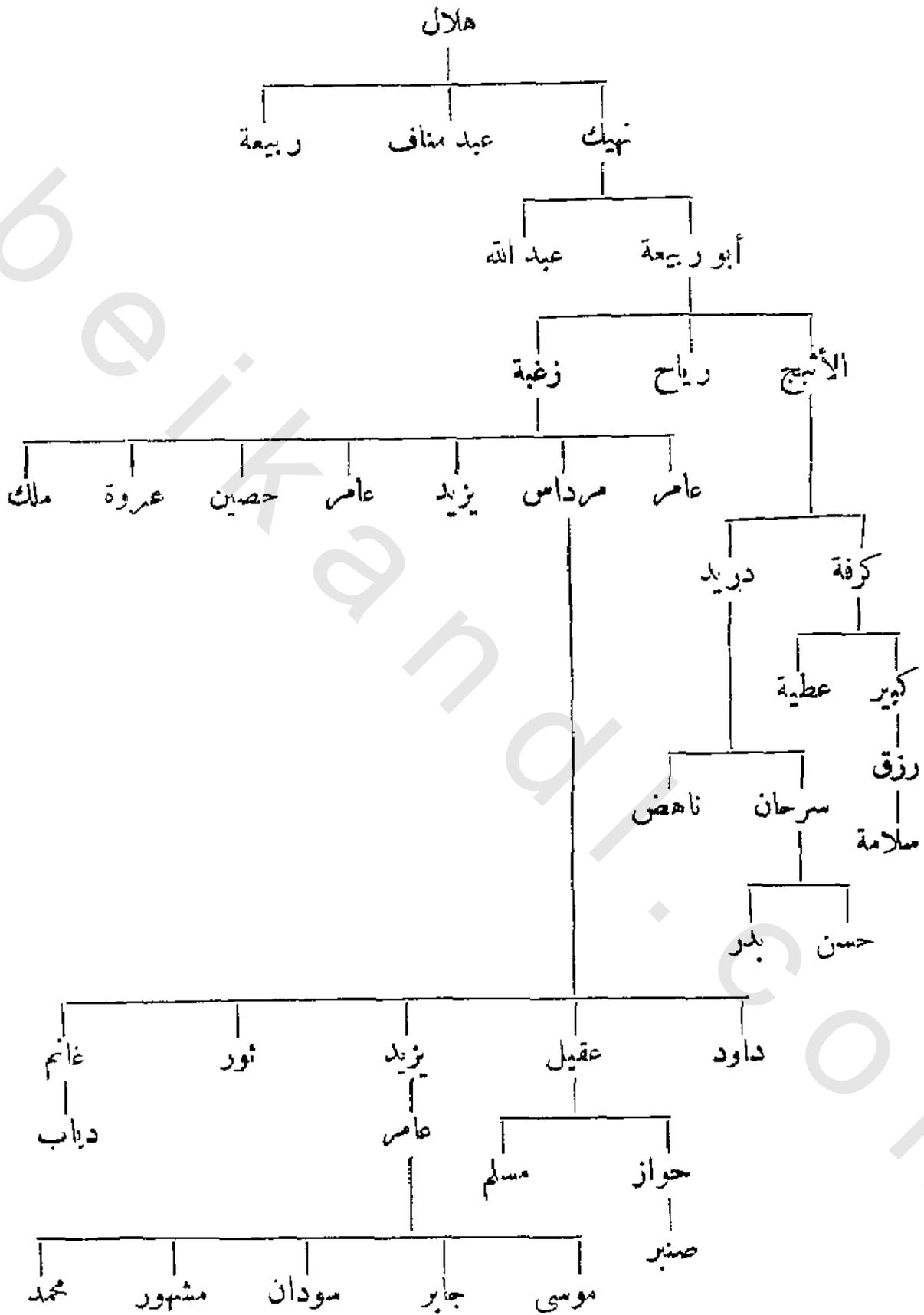
(٤) ج ٩ ص ٣٩٠

زنانة والعمل على إضفاف شوكتها . ولسنا نستطيع أن نرفض قول ابن الأثير إذا لاحظنا أن الهلالية كانوا بعد أن غلبوا على الأمصار قد أصبحوا أقرب إلى الجند المرزقة ينضمون لأي فريق يوسع لهم في الأمانى أو يجزل لهم في الاعطيات .

وهكذا تم الغلب للهلالية على صنهاجة وزنانة جميعاً . ولكن العجيب أنهم لم يؤسسوا ملكاً ولم يشيدوا دولة<sup>(١)</sup> . وهذا هو الفارق الجوهرى بينهم وبين الفتوح العربية الأولى يجهل الذين يوازنون بين الحركتين لا يقيمون الموازنة على أساس صحيح ، فغرب الفتوح كان يحركهم مثل يريدون تحقيقه . أما هؤلاء الأعراب فلم تكن تحركهم إلا غرائزهم ، لذلك طالما كانوا منقسمين يؤثرون الضواحي والأرياض على الأمصار ويفضلون البداوة الجافية والنقلة المستمرة على الحضارة والاستقرار . وكانت عصبيتهم أقوى من أن تتحول إلى وطنية مرتبطة بإقليم أو رقعة محدودة من الأرض . وإن فعلت شعب منهم ذلك ، تسربت في غيرها واستمرت جموعهم تدور بين المصايف والمشاتى تفتجع الجزر الخضراء وتقطع الطريق على السفر والتجار وتغير على السابلة ، ويستأجرها أصحاب السطان في التمكين لأنفسهم ومدافعة خصومهم . وقد حاول ابن خلدون في غير موضع أن يتبين أنسابهم ، فرأينا أن نجمع ذلك في شجرة واحدة تدل على الأصول والفروع ، ونشير إلى مدى القرابة والصلة بين مختلف العشائر والبطون .

وإذا كان لهذه الهجرات الهلالية التي اتخذت مظهر الفتوح من أثر في شمالي إفريقيا ، فهو العمل على تغريب هؤلاء البربر ، ذلك لأن الفتوح الاسلامى الأول ، وإن طبعهم بالدين واللغة ، إلا أنه لم يسطهم بالدم العربى . فعدلت الغزوة الهلالية تعديلاً جنسياً

(١) ولا عبرة بما فعله بنو جامع — وعم من رباح — في تأسيس إمارة لهم بمدينة قابس أو تشييد حصن أو مسلح في المعلقة على خرائب قرطاجنة القديمة . مارسه في ( دائرة المعارف الاسلامية النسخة الانجليزية ج ٣ مادة رباح ) .



« هلال » شجرة النسب الخاصة به .

أو عنصرياً في السكان جميعاً ، حتى أصبح الأثر البربري القديم لا يلتصق إلا في معازل طبيعية ضيقة ولا يميز إلا ببعض الظواهر اللسانية العامة<sup>(١)</sup> .

ونحن نستنتج من هذا كله أن الهلالية هؤلاء كانوا من المعنين في البداوة المعتزلة بالعصبية ، لأنهم كانوا يقاومون عوامل الاستقرار والاندماج . وأنهم لم يتغيروا في جميع المسارح التي حلوا فيها فقد كانوا في نجد والعراق والشام ، كما كانوا في مصر وإفريقية وبلاد المغرب . وكانت صلاتهم بالدول النظامية وأصحاب السلطان سلبية تقوم على طلب الانتفاع بأية وسيلة كانت . وهم يرون بصور الحكم مرورهم بمناهج الاجتماع والدين ، لا يؤمنون بشيء منها . ينصرون فريقاً ثم يخذلونه ، ويمدون فريقاً آخر ثم يخفرون به ، ويتحولون بين القرامطة والشيمية وأهل السنة ، تحوّلهم بين المصريين والبربر والسودان ويسيرون وراء قادة من الأعاجم والآتراك . ولكن مما لا ريب فيه أن هجرانهم منذ خرجوا من نجد إلى أن تفرقوا في يواضي إفريقية وتلاهما تواف وحدة قائمة برأسمها على الرغم من حدودها على فترات كثيرة يتقارب بعضها ويتباعد بعضها الآخر ، لأنها اتخذت سبيلها في اتجاه واحد ناحية الغرب . ولا عبرة بتأثيرها في مراحل من الطريق ، ولو طال هذا التلبث قرناً أو يزيد ، لأن ذلك لم يغير من فطرتها ولم يبدل في اتجاهها . ومن ثم كان إطلاق التفرقة على هذه الحركات البشرية مسيراً للواقع .

وإن الباحث لا يستطيع مهما يجهد أن يقدم صورة عضبوة لهم إذا هو درس امتدادهم في المكان أو الزمان فحسب . وما تكمل الصورة إلا إذا نظر إلى روح الجمع الهلالي التي لم تتغير في جميع المراحل والأجيال .

(١) دائرة المعارف الإسلامية « مادة بربر ، الترجمة العربية » ج ٣ ص ٥٠٨

## الباب الرابع

### مقومات النفس الجماعية

لا مجال لتكرار القول بأن علم النفس يتفرع إلى شعبتين ، تعرض الأولى للأفراد وتتبع نزعاتهم وأهوائهم ومجالات مشاعرهم وأفكارهم وما لهذا كله من الأثر في شخصيتهم وألوان سلوكهم . وتعرض الثانية للجماعات وتفسر ذاتياتها المختلفة وأهواءها المتباينة وما يرسب في أطوائها من تراث الأجيال وما تنزع إليه واعية أو حاملة وتشرح أعمالها على هدى الدراسة المتأملة البصيرة . وكما أن هناك ضربين من علم النفس الفردي ، أحدهما وصفي والآخر تحليلي فكذلك لعلم النفس الجماعي ضربان ، أحدهما وصفي والآخر تحليلي أيضاً يعالج الأول اتجاهات جماعات يعينها بقص أثرها ، وهو يساير التاريخ في ذلك ، ويحاول الثاني أن يجال تلك الاتجاهات ويتعرف إلى مصادرها وبواعثها ، ويخط القوانين العامة التي تخضع لها هذه الجماعات في النشأة والتطور جميعاً<sup>(١)</sup> . وهذا الضرب الثاني أحدثهما وهو يكاد يحل على الأيام محل فلسفة التاريخ . ولعله قد أصبح الآن أهم ما يدنى به علم النفس الجماعي بأسره . أضف إلى ذلك أن علم النفس الفردي لا يستطيع أن يقوم بمهمته في تشخيص الفكر إلا إذا أدرك البواعث الجماعية التي أنشأت هذا الفكر الفردي وما رسبته فيه مما تسرب في جبلته أو غريزته أو بقي يخالط الوعي ويقيد الإرادة ويحدد السلوك . وسنؤثر هذا الضرب في تحليل المقومات النفسية للجماعة الهلالية مستهدين بما صرّ بنا من تاريخهم ومستقرئين الروايات المتناثرة في بطون الكتب والمدونات وإن كانت

عامة لا تميل إلى التخصيص إلا قليلا . ولن نلتقي بالنا بطبيعة الحال إلى أنظار أولئك الذين اعتمدوا على فلاسفة القرن التاسع عشر من الأوربيين الاستعماريين في تقسيم البشر إلى أجناس قاعمة برأسها يمتاز بعضها من بعض بخصائص لا تجعلها متفاوتة في النوع بحسب ، ولكنها متفاوتة في الدرجة أيضاً ، لأن هذه الأقوال أدخل فيما عرفه تاريخنا بالشعوبية التي تقوم على منافرات تبعدها عن الحقائق العلمية الرصينة .

ورى لزما علينا قبل أن نمضي فيما نحن بسبيله من العرض والتحليل ، أن نصنف الجماعات تصنيفاً نفسياً لنضع الهلالية في مكانهم بين سائر الجماعات . ويختلف التصنيف باختلاف الأساس الذي يبنى عليه . من ذلك ما يحتفل بالمنصر الزمني فيقسم الجماعات إلى مؤقتة تتفاوت أعمارها ، وإلى دائمة ، أو بتعبير أدق ، مستمرة لأنها مهما طالت فصيرها إلى تحوّل أو زوال ظاهري . ومنه ما يحتفل بنوعها من طبيعية توجد كما توجد الكائنات الحية بالتوالد والنمو ، أو مصطنعة تجتمع بالصدفة ومحض الاتفاق أو تجمع كرها أو استهواء ، ومنها ما يقوم على الغاية من فطرية لا هدف لها إلى غاية تقصد إلى غرض معين <sup>(١)</sup> . والهلالية بالبداية جماعة مستمرة عاشت أجيالا وقرونا متطاولة لا يعرف أوائلها بالتحقيق ولا يمكن أن يشار إلى أواخرها ، فقد ظهر واعي مسرح الحياة فتأثروا بها وآثروا فيها وعاش فيهم غيرهم كما عاشوا في غيرهم . ثم هم إلى ذلك جماعة طبيعية نشأت نشأة تلقائية لم توحّد بينهم إرادة البشرية ولم يجتمعهم وعى متعبد ، وما رأيناهم من تدخل بعض الارادات في تفرقتهم أو نقلتهم — إن صح ذلك — لا يمكن أن يخرجهم من صورتهم الطبيعية المتباورة إلى صورة أخرى . وهذا يستتبع القول بأنهم جماعة لاغائية ، يصدرون في أعمالهم الجماعية المشتركة عن الفطرة والغريزة . ولم يرسم لهم هدف محدود يرمون إليه منذ وجدوا على الأرض وأرادات أصرائهم وزعمائهم لا يمكن أن تتعدى المجال الحيوي الفطري بحال من الأحوال .

وقد استخلصنا من الفصول السابقة أن الهلالية حتى قبل أن يدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه — كما يقولون — كانوا جماعة من الرعاة قد ساروا في مدارج التقدم شوطاً أو شوطين وأن منازلهم متبدية جافية غير ذات مطر كثير . وأرضهم تناقض الغاية من حيث انكشافها ، وتعرض الأحياء فيها للأخطار المتجددة أبداً . وما نظن أن الصراع بين الانسان والطبيعة يبدو في صورة أبرز من صورته هناك ، فالجذب يعتورها بين حين وحين . والانسان الذي لا يستطيع أن يعتمد في حياته على الكلاً والعشب وحدهما يتألف الأنعام ويعتمد عليها في جميع شئونه . ولعل أصدق صورة لهم هي التي ذكرها ابن خلدون في كتاب العبر ، وقد رأى أعقابهم في شمال أفريقية ومصر وبلاد الشام ، وإن عمم الصورة على العرب جميعاً قال : « إن العرب ( وهي صورة صادقة عن الهلالية وأحلافهم ) منهم الأمة الراحلة الناجمة ، أهل الخيام لسكناتهم والليل لركوبهم ، والأنعام لسببهم ، يقومون عليها ويقفون من الباطن ، ويتمخضون الدفيء والأثاث من أوبارها وأشعارها ، ويحملون أثقالهم على ظهورها يتنازلون حالاً<sup>(١)</sup> متفرقة ويتفتنون الرزق في غالب أحوالهم على القنص ، ويتقلبون دائماً في المجالات فراراً من حمارة القبيظ تارة وصبارة البرد أخرى ، وانتجاعاً لمراعى غنمهم ، وارتداداً لمصالح إبلهم الكفيلة بمعاشهم وحمل أثقالهم ومنافعهم ، فاخصوا لذلك بسكنى الاقليم الثالث ما بين البحر المحيط من المغرب إلى أقصى البن وحدود الهند من المشرق ، فعمروا اليمن والحجاز ونجدا وتهامة وما وراء ذلك ، كما دخلوا إليه في المائة الخامسة كما ذكره من مصر وصحارى برقة وحولها وقسطنطينية وافريقية والمغرب الأقصى والسوس لاخصص هذه البلاد بالرمال والقفار المحيطة بالأرياف والتلول والأرياف الآهلة بمن سواهم من الأمم في فصل الربيع وزخرف الأرض لرعى الكلاً والعشب في منابقتها والتنقل في نواحيها إلى فصل الصيف لمدة الأقوات في سنتهم

(١) هكذا في النص .

من حبوبها ، وربما يلحق أهل العمران أثناء ذلك ممرات من أضرارهم بإفساد السابلة ورعى الزرع مخضراً وانتهابه قائماً وحصيداً إلا ما حاطته الدولة وذاذت عنه الحماية في الممالك التي للسلطين عليهم فيها ، ثم ينحدرون في فصل الخريف إلى القفار لرعى شجرها ونتاج إبلهم في رمالها وما أحاط به عملهم من مصالحها وفراراً بأنفسهم وظلماتهم من أذى البرد إلى دفيء ماشيتها فلا يزالون في كل عام مترددين بين الريف والصحراء ما بين الاقليم الثالث والرابع صاعدين ومنحدرين على ممر الأيام<sup>(١)</sup> .

وليس يغرب عن البال أن هناك فريقين من الهلالية ، الفريق الأول أولئك الذين نداعوا إلى الخلف العام وكوتوا ما نستطيع أن نسميه القوم وشاركوا في حركة التوسع التي نزعنا إليها هذه الأمة الجديدة واستقروا في ديار أخرى بعيدة عن ديارهم الأولى وساطوا غيرهم بدمايتهم في أجيال متعاقبة متطاولة على الرغم من العامل البيولوجي القوي الذي يمنعهم فطرة من الاصهار إلى غيرهم من الاجناس الأخرى . وحدث لهم التحول في الصورة العامة فانقابت خصوماتهم التي كانت تقوم بين وحداتهم الأولى إلى خصومات أخرى في سبيل السيادة أو الغلب في الأمة الجديدة ومارسوا أعمالاً أخرى لم تكن تؤهلهم لها منابتهم . ونحن نخرج من حسابنا التجارة لأنها من الفرائز الغالبة على البدو جميعاً . ونذكر الزراعة لأن بعض أجيالهم أخذت بها على الأيام وكوتت ما كان يسميه أرسطو : « المزارع المختلطة »<sup>(٢)</sup> . ثم درجوا على المزارع النابتة وأخذوا بأسباب الاستقرار وهجنوا الحضارات التي بنوا بها وأوجدوا حضارات أخرى فيها سمات جديدة إلى جانب سماتها القديمة . ووسعوا من الأقن النفسى للاقوام الذين امتزجوا بهم ، ولما نزعنا أنهم دفعوا هذه الأقسام إلى الرقى لأن ذلك مردود . ولكن الذي نستطيع أن نزعنا أن الأجيال التي نشأت من هذا الصهر كانت أقوى من تلك الأمم شكيمة

(١) ابن خلدون : العبر .

(٢) Mayors المصدر المذكور ص ١٦

وأشد صراساً . والفريق الثاني من الهلالية أولئك الذين ظلوا في ديارهم الأولى أو حلوا  
دياراً أخرى قريبة الشبه بها واستمروا على خصائصهم القرون المتطاولة ولم يتحولوا  
عن بدارتهم ولم يصهروا إلى غيرهم وظلت حالهم كحال الجاهليين ، ولولا أن اصطلاح  
الجاهلية قد اكتسب في الاستعمال التاريخي والديني معنى آخر غير معناه الحسي الأول  
لظلنا نطلقه عليهم . من أجل هذا نرى من الواجب أن نستخلص الخصائص النفسية  
المشركة بين الفريقين وإن كان بعضها قد كمن في الأولين ولكن كونه لا يني فناءه .  
وأول ما يجدر الإشارة إليه ، هذا النظام البطرقى — الأبوي إذا شئت — الغالب  
على الجماعة الهلالية ، وهو الذي نعرفه بالمصيبة والذي يجعل من هؤلاء الناس مهبما  
تكاثروا ، أسرة موحدة متجانسة تتخذ كما يقول الاجتماعيون الشكل الميراركي الهرمي  
على قمة الزعيم القائم بينهم ، وهو أبوهم حقيقة حتى إذا انضمت الوحدة إلى غيرها ،  
كانت هذه الأبوة مدعاة لأكثرتهم قبيلاً وأعزهم نفراً ، وأصبح هذا الرئيس الجديد أباً  
للوحدة الثانية كما هو أب للأولى ، له جميع الحقوق على الفروع غير المنحدرة من صلبه ،  
وعليه جميع التبعات التي للوالد على التحقيق من الرعاية والحماية والتكفل بالمصالح .  
وهذه العصبية البطرقية تكسب الجماعة الهلالية لوناً قوياً من التماسك وتمنحها القدرة  
على الاستمرار ، وهي تباين من وجوه كثيرة ، العصبية الإقليمية أو الحرفية . ومن ثم  
كان أول طابع نفسي فلهجه هو التمسب العنيف للجماعة أو القبيل ، فهو أخطر من  
تمسب الفرد لأسرته المحدودة في مجتمعهما الحديث لما يكسبه التأزر من البأس والمنعة  
ويندرج في هذه الميراركية البطرقية الأنساب ، فكما أن الجيل القائم المكون للوحدة  
الجماعية الهلالية الشاخصة يؤمن بالأبوة الحية في صورة الزنظمة أو الإمارة أو المشيخة  
أو ماشئت من هذه الألقاب والمصطلحات ، فإن كل جماعة من الجماعات الهلالية تحافظ  
على الوحدة بين سائر أجيالها القائمين والغابرين ، احتفاظها بالوحدة القائمة الحاضرة ،  
على نفس النسق الأبوي ، فتذكر أنسابها وترتفع بهم إلى مدى بعيد . ولهذا الأسباب

وظيفة أخرى ، ذلك أنها تؤلف بين سائر الوحدات في مجموعات أكبر فتشدد بذلك العصبية وتعنف ، فيصدر عنها أحياناً كثيرة من الشغب ما يسلكها مع الفوضاء المتجهرين من حيث الطابع النفسى .

وتهدينا هذه العصبية الأبوية إلى طابع آخر يلون المجتمع الهلالي وغيره من مجتمعات الأعراب ، فالرجل أبرز من المرأة وأظهر ، فهو القوام على الأسرة الصغيرة قوامه الأمير أو الشيخ على الجماعة الكبيرة وهو المسئول عن عياله ، وهو المطالب بالنار والدية ، وهو صاحب رأى الأول والكلمة النافذة . وكانت المرأة تابعة له تقيم في كنفه وتحت حمايته وإمرته ، وهو الذى يقوم عنها بمصالحها على الرغم من إعطائها الحقوق المدنية فى الشرع الإسلامى . ونحن إذا أمعنا النظر فى آيات القرآن الكريم نستهدىها صورة المجتمع العربى العام ، والهلالية فرع منه ، فإننا نجد فى الأغلب الأعم أن الخطاب كان يوجه إلى المذكر مفرداً وجمعاً<sup>(١)</sup> ، كما أننا نجد هذا التفاوت فى اللغة العربية نفسها ، فهى تستعمل جمع المذكر للجماعة المختلطة ، وتستعمل فى الحركة عند التذكير وتتسفل عند التأنيث ، بل وتسوى بين الأنثى والجماد ، كما أن العبارات الموضوعية لبيان العلاقة الأسرية تميز الرجل وتدلل على الطابع الأبوى الذى ذكرناه مثل كلمة رب وكلمة بعل<sup>(٢)</sup> وما إليهما . وقد أعطى هذا ، الذكور فى المجتمع الهلالي ، الطابع النفسى الثانى وهو الاستعلاء على الجنس الآخر . فإذا أضفناه إلى العصبية السابقة ، وجدنا الرجل منهم أو اليافع وقد جبيل على اعتزاز مزدوج . اعتزاز بذاتيته فى قبيلته ، واعتزاز بها خارج هذا القبيل . ولكن هذا لن يكسبه ، كما سنوضح بعد ، التفرد المألوف فى مدينتنا الحاضرة ، على أن المرأة لم تكن مع هذا كله مفقودة الشخصية إلى جانب الرجل ، ولسكنها كانت على تبعيتها له برزوة مافرة

(١) محمد عزة دروزة . عصر النبى وبيئته قبل البعثة ، ص ١٢٩

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، مادة «بعل» .

غير منعزلة ، وكثير ما شاركت في الشؤون العامة للقبيلة وكانت لها وظائف جماعية أخرى تقوم بها كالاستنغار إلى القتال والحث عليه وتفريع المتخلف عنه أو الهارب منه . كما أن أفراداً منهم ، وهذا يثبت القاعدة الأولى ولا يبطلها ، كنّ يقمن بمصالحهنّ جميعاً دون ومساطة الرجال أو يتجاوزن المشورة إلى المساهمة الإيجابية فيما تعرض له الجماعة من مشكلات .

وإذا دققنا النظر في هذه الجماعات الأعرابية لتبين مدى علاقات الرجل بالمرأة ، فإننا نجد أن العصبية الأبوية القائمة على قرابة الأصلاب قد كيفت هذه العلاقة ووسمتها بمسماها ، آية ذلك بروز القواعد الاجتماعية التي تنظم الصلات بين الذكور والإناث فيما يتصل بمسائل النكاح . ونحن نعلم أن كل مجتمع تضبطه تلك الصلات بما ترسبه في العرف العام من شعائر تختص باختيار الشريك ذكراً أو أنثى ، وبعض هذه الشعائر داخلي يحرم على أفراد الجماعة الاضهار إلى جماعة أخرى ، حماية لخصائصها البيولوجية في مضمار التنافر على البقاء والاحتفاظ بالأصالح من الصفات الجثمانية والعقلية معاً . وبعضها الآخر خارجي يحرم على أفراد كل جماعة البناء بأجيال معينة من الأقرباء إبقاء على الأنساب وتقويةً للفرائز والرغبات<sup>(١)</sup> . فالاختيار أو الانتخاب محصور في هاتين الدائرتين لا يمكن أن يتعداهما إلا شذوذاً . وهو موكول في العادة إلى الذكر دون الأنثى ، فعليه أن يتخير أو ينتخب من قبيلته أو عشيرته أو حيمه ، وأن يرغب عن أجيال بذاتها من ذوى قرابه . وكلما التفتت الجماعة بجماعة أخرى والتمست الاثنتان أباً أبعد من أبيهما ، كان من اليسير على أفرادهما أن يصهر بعضهم إلى بعض . وليس معنى هذا أن الصهر محرم تحريماً باتاً بين كل الجماعات غير المرتبطة برباط النسب ، فكثيراً ما حدث زواج سياسي تاليفاً للقلوب المتباعدة ، وتسكيناً للخواطر الثائرة ، وإقراراً للسلم بين متخاصمين . زد على ذلك أن الحفل

(١) أ . وستمارك . الزواج ، ترجمة كتاب هذه السطور ص ١٦ - ١٩

الذى يقوم بوظيفة الاشهاد الاجتماعى ، يدل على ما للذكر من امتياز على الاثني ، فهو الذى يذهب فى أشياخ حيه خاطباً ، ويكون توجهه إلى الرجل القوامين على من يريد أن يبنى بها<sup>(١)</sup> ، ولا تخلو خطبة النكاح من اعتزاز بالأباء والأجداد . كما أن بعض العادات الملايسة لهذا الحفل ، تشير بوجود آثار من عهد الزواج بالأسر أو الزواج بالشراء . والسبب والاسترقاق معروفان متداخلان فى تلك الجماعات التى تعيش على الغارة والقتال .

وإذن فروح الجماعة تسيطر على جميع تصرفاتها فى الداخل وفى الخارج ، وترسم لها البواعث والأهداف ، وتفيد سلوكها أفراداً وقبيلاً ، وهذا يقربها فى التصنيف النفسى إلى الجيش النظامى المدرج فى القيادة على النظام الهرمى نفسه ، والمحتفظ فى تاريخه بأعجاد يمتاز بها ويفخر سائر الجيوش . وكل فرد فى مثل هذه الجماعة ، إنما هو صورة مصغرة لها يحس باحساس الجميع ، ويقوم من غير مقام الأخ بجميه ويهتم بكل ما يصدر عنه ، فالعمل الفردى يجر دائماً أبداً إلى عمل عام . ومن ثم كان كل واحد يصدر عن رقابة جماعية متميزة فى داخل ذاته وخارجها على السواء . وإذا اتفق له أن لقي أفراداً من غير قبيلته فانه لا يتعرف اليهم أو يهتم بالتعرف اليهم بالذاتية الخاصة لكل منهم ، وإنما يلتقى باله كاله إلى القبيلة التى ينتسبون اليها فيقبل عليهم أو ينفرد منهم تبعاً للعلاقة القائمة بين قبيلته وقبيلتهم . وهكذا تفتى مسئولية الفرد وتحمل نحاهما المسئولية العامة المشتركة . وتتحدد الخصومات الخارجية أو الداخلية وفقاً لهذه المسئولية المشتركة وما يمتورها من قوة أو ضعف . وروحها المعنوى من هذه الناحية أقوى من الجيش وأكثر تماسكاً لأن الأصرة التى تجمع بين الآحاد أدخل فى الطبيعية وأبعد عن الافتعال وألزم للحياة . وهذه الشخصية الجماعية تصب الأفراد فى قالبها صلباً ، فهم لا تفتج الشخصية الفردية

بل لا تحاول إنتاجها . وما تراه من امتياز بعض الأحاد وتبريزهم واحتلالهم مكان الصدارة في الكيان الجماعي بأسره ، لا يعني أنهم أفراد ذوو خصوصية ، وإنما يعني أنهم صور مجسمة من الأحاد العاديين ، وما أكتسبهم التقدم أو التبريز ليس هو التفرد بغير المؤلف ولكنه التفوق في القيام بعمل شائع يجاوز به قدرة الأوساط العاديين .

ومما يقطع بهذه المسؤولية المشتركة ما أثر عن القبائل بعامة من الخلع<sup>(١)</sup> ، فقد يعنى لهم أن يخلعوا أحد أفراد القبيلة لخروجه عن العرف العام الذي يعرض حياة القبيلة أو كرامتها للخطر والامتهان فيقولون إنهم بخاعونه لكيلا يؤخذ بجيرته أو جنابته ، والمعنى المستفاد من هذا أنهم يبرثون الجماعة منه بحيث تصبح غير مسؤولة عنه مسئوليتها عن جميع الأحاد المنتسبين إليها . والعادات المتصلة بهذا القصر لا يمكن أن تتم إلا إذا استكملت شرط العلنية لأنه حكم يشبه « الموت المدني » في مجتمع يقوم بهذه الآصرة العامة ولا يقوم بسواها ، وقد نبئنا أن الخلع إنما يكون حيث التجمع ، ولا تقصد به تجمع الوحدة الجماعية فحسب ، ولكننا نقصد به تجمع وحدات كثيرة في المواسم والأمواق ويكون بالأشهاد الواجب في المعاملات ، ويفقد المحكوم عليه بها الحماية العامة المماثلة « للجنسية » في مجتمعاتنا الوطنية ، وما يترتب على ذلك من مزايا وحقوق وتعرض حياته للخطر ولا دية له إذا قتل . وتتصرف الوحدات الأخرى معه تبعاً لما بينها وبين قبيلته من حاف أو خصام ، فتتكره أو تحميه ويعرف الواحد منهم « بالخليع » — أى الخلوع — وهو أصل المعنى الدائر الآن على الألسنة والأقلام ، ولعل هذا التحول جاء عن بعض البواعث في الخلع ، كالمجون أو الفلوفى الشراب أو التهمك ، وهذا العرف المرعى يرفع مستوى أخلاقية العامة في القبيلة ويحرم الحياة العظمى ويدود عن التماكك الواجب في هذه الجماعات التي لا يمكن أن تعيش في بيئتها إلا متساندة متآزرة .

(١) الألوسى : بفتح الأرب ، ج ٣ ص ٢٧

ولا يخرج على العصبية البطرقيية أو القرابية الأبوية ما امتنفته القبائل من الحلف<sup>(١)</sup> فكثيراً ما ارتبطت القبائل به ، وهو عبارة عن ميثاق يتماهدون فيه أن يكونوا صفاً واحداً متسانداً ، ينفرون إلى القتال معاً ويحتملون الديات معاً ، يأخذون بشارات بعضهم بعضاً . ويؤلف هذا الحلف اتحاداً فيه ملامح من عصبية النسب ، وربما اعتمد على هذه العصبية في وجوده فبعث ما درس منها أو انتحلها تقوية للأصرة وتوسيعاً لدائرة المسؤولية الجماعية المشتركة ، وتكون صلة المرء بهذا الاتحاد كصلته بقبيلته ، يتمسب له ويذود عن كل امرئ فيه ، وقد تقوى هذه العصبية الجديدة حتى تدفع العصبية الأولى إلى ما يشبه الكون أو الاضمار في إخلاد الأجيال ، فاذا وهن الحلف لسبب من الأسباب عادت العصبية الأولى للظهور واختصمت الوحدات فيما بينها ، وقد تظل النفرة قائمة بين أجزاء الحلف الواحد ، شغلهم عنها خطر مشترك إلى حين ، فاذا انقضى ، انفرط الحلف ، أو بقي اسماً لاسلطان له ، ومن اليسير أن نميز في كثير من تلك الأحلاف ، النماذج الدوال على وحداتهم الأولى في التخلق والسلوك .

وتبدور روح الجمع هذه واضحة جليلة فيما عرف بالجواري<sup>(٢)</sup> ، فقد كان من العرف المتبع أن يطلب امرؤ إلى آخر في غير قبيلته لسبب من الأسباب أن يجيره ، أي يحميه ويدفع عنه ما هو متعرض له من الحيف ، وليس يتم ذلك إلا على ملا من الناس لما يترتب عليه من التبعات العامة ، ذلك لأن المستجير سيصبح بهذا الجوار ذمة في عنق القبيلة كلها ، تدفع عنه ما تدفعه عن آحادها ، والخفر بالجوار خيانة قومية تنكرها الجماعة وتنفرد من مرتكبيها ، وتعترف الوحدات الجماعية الأخرى بهذا الجوار ، لأن صاحبه المستمتع به قد اكتسب عصبية جديدة . وقد رسم المجتمع بما وضع من عرف أقوى سلطاناً من القانون الحديث في الاجراء والحكم والتنفيذ جميعاً ، ضوابط هذا

(١) م . ع . دروزه ، المصدر السابق ص ١٦٧

(٢) م . ع . دروزه ، المصدر السابق ص ١٧٤

الجوار . ولم يكن من اليسير على المجير ، أياً كانت مكانته من الصدارة أو الأمانة في قبيلته أن يأخذ على نفسه مسئولية الجوار ، إلا إذا أنس الكفاية في ذاته وفي الجماعة التي ينتسب إليها أو يقوم عليها .

ويدخل في هذا الباب أيضاً ، الولاء (١) ، وهو أن يلتحق أعرابي من قبيلة ما بيد في قبيلة أخرى وبطلب منه أن يكون وليه ، فإذا قبل أصبح وكأنه من ذوى رحمة وقرباه ودخل في عصبية جديدة ، وهذا الولاء كالجوار في الحقوق والتبعات ، ولكنه أقوى منه في وثوق الصلة بين المولى والجماعة ، وإن كان أقل منه درجة في العرف الاجتماعي ، ذلك لأن المولى كان أدنى مرتبة من الحر ، وإن لم يبلغ درجة الأرقاء . ونظام المولى في العرف البدوي ، الذي كان معروفاً أيام الجاهلية وظل كذلك بين الأعراب بعد الإسلام ، وإن تمدت صورته ببعض الشيء ، غير نظام المولى الداخل في دائرة الرق الشائع في الجماعات الإسلامية المتحضرة . واعتماده على المسئولية الجماعية المشتركة ، جعله لا يتم هو الآخر إلا بالأشهاد العلني . وبذلك يتمتع المولى بالحماية العامة ويقوم بما يقوم به سائر الأحاد في عصبية الجديدة من القتال وطلب الثأر والغنيمة .

وكل هلالى صورة مصغرة من جماعته ، وكأنما صب الكحل في قالب واحد إذا رأهم غير المنتسب لهم لم يستطع أن يفرق بين آحادهم . مثلهم في ذلك مثل أفراد الجيش الواحد في الوطن إذا استعرضوا تشابهوا زياً وسحنة ، وأدت هذه الحياة التي تغلب عليها روح الجماعة بأن يتشابهوا كذلك في الخصائص العقلية والنفسية ، فهم متوجسون أبداً بختصمهم مع الطبيعة ، لا يحلون في موضع حتى يافظهم إلى موضع آخر . وتختصم وحدانهم بعضها مع بعض استشارة لكوامن المصيبات القديمة

من ناحية ، واختلافاً على الرياسة أو الغنمية من ناحية أخرى ، ويختصمون مع غيرهم من الجماعات التي يلتمون بها أو يمررون عليها لا يستأنسون الا بذواتهم ، وكل من سواهم عدو لهم ، عليهم أن يبدأوه بالشر قبل أن يبدأهم ، واعتمادهم في البقاء على الغنمية يجعل صفة الاعتداء من أخص صفاتهم وألزم خلاتهم . وإذا كانت الجماعة كما رأينا تصدر عن غريزة الأبوّة في أعمالها واتجاهاتها ، فانها تصدر كذلك عن غريزة المقاتلة دفاعاً عن الذاتية الجماعية وطلباً للغلب في آن واحد<sup>(١)</sup> . وهذه الجماعات الهلالية المبنية على عصبية الدم والنزاعة الى التآزر بين أحادها لما يكتنفها من الخطر الشاخص في الطبيعة وفي الناس — كما قلنا — يشتد وعيها لروح الجماعة وتتجسم فيها غريزة المقاتلة وتأخذ مكانها في الصف الأول من المقومات النفسية العامة ، وتعمل على الموازنة بين تلك الجماعات في خصامها وتحالفها من جانب ، وبين البيئة المادية ذات الطاقة المحدودة في الانتاج من جانب آخر ، ولستنا في حاجة إلى أن نلقى بالنسبة الى ما يحتفل به علماء النفس الجماعى من أن ظاهرة الرياسة في القبيلة ، إنما هي كذلك وليدة غريزة المقاتلة احتفاظاً بالسمات البيولوجية الغالبة فيها وإن بقيت كذلك آثار تصاحب انتقال الرياسة أو الامارة أو المشيخة من فرد إلى فرد آخر في الوحدة الصغيرة أو الحلف العام . ومما لا شك فيه أن المفردات الدائرة على أسنة هؤلاء الأعراب بعضها متصل بالقتال اصطفاً وإغارة واغتناماً ، كما أن الصيغ المتعددة المتصلة به تدل على ما لغريزة المقاتلة من الشأن الكبير في حياتهم . وهم كلما أصابهم مكروه اعتمدوا على روح الجماعة مما نجده في استغاثاتهم ، وأغلب الظن أن لام الاستغاثة بقية من الحكمة الدالة على التقدم في ذاتها ، وعلى العصبية البطرقية في إضافتها إلى الأب المباشر في القبيلة الخاصة أو غير المباشر في الحلف العام .

وكان من الطبيعي أن تحتفل الجماعة الهلالية بأنعامها ، فهي لا تستطيع أن تستغنى عنها في جميع التصارييف ، وما نجد في تعبير الأستاذ « مايرز » غلواً أو إسرافاً عندما قال إن هؤلاء « الزعاة » كانوا بمثابة الطفيليين على أنعامهم<sup>(١)</sup> وقد دخلوا طور استئناس الحيوان وتأليفه والتدخل الصناعي في توليده وتكثيره والاهتمام بالأنواع الاصيلة منه . وهو الذي رسم لهم الاجتماع الموسمى للكلأ . وقد طبخوا على حيوانهم ما أفوه في مجتمهم من المصبية الأبوية وأفادوا من القواعد البيولوجية في الاحتفاظ بسلامة أنسابه وبخاصة فيما يتصل بالابل والخييل ، والثانية أهم عند الهلالية من الأولى لأنها كما يذهب إلى ذلك « مايرز » ، هي التي نقلت هذه الجماعات البدائية من طور إلى طور تعينها على الاغارة والنجاء وتصحبها حينما تكون ، حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخييل أدنى إلى القرابة ، فيها من التعاطف والحب ما بين الأقرباء . ونمايز الخييل عندهم كتمايز آحادهم بالاصالة في النسب ومجاورة القدرة في الأوساط ، وقد اشتهر النجديون بخييلهم ، واختصت صليم بالقبريز في هذا المضمار ودونت الكتب أسماء كثير من الخييل المشهورة « كالأحزم » وكان عند نبيشة ابن حبيب السلمي ذاع صيته يوم « الكديد » وسجل اسمه في الشعر . و « الأزور » وكان عند عبد الله بن حازم السلمي ، ولا يقل شهرة عن سابقه . و « الأعوج الأصغر » وقد ذكر أنه كان عند بني هلال بن عامر ولم يمين صاحبه على التخصيص ، ولعله سمى باسم « أعوج الأكبر » أشهر خيول العرب وأعظمها ذكراً على الاطلاق . ولا يفوتنا دلالة التسمية في الخييل على المسكانة والاعزاز ، . . . ولا تسويها وتعلمها إيراداً لها وتعريفاً ، كيلا تختلط بغيرها . وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخييل وأصحابها ، أن الفارس منهم كثيراً ما كان يعرف بفرسه لا بقسماته وزيه .

واحتفلت الجماعات الهلالية بأساحتها لما تتصف به من النزعة الحربية ، ولكن

هذه الاسلحة كانت من النوع الخفيف الذي يتلاءم مع طبيعة حياتهم المتفائلة أبدأ والمعتمدة على امتطاء صهوات الخيول وظهور الإبل . وأظهر هذه الأسلحة « السيف » في الدفاع عن الذات والمبارزة والقتال عن قرب « والرمح » للكر والاذاعة والرمي عن بعد وكذلك « السهم » . وكان تدريبهم على أعمال الفروسية واستجلاب أسلحتهم من خارج جماعاتهم بالاغتنام أو الشراء ، يتطلب من كل فارس تدريباً بسلامة معين ، اختبار صلاحيته وتعود عليه في الكر والفر أن يحافظ عليه محافظته على حياته ، وأن يصونه من التلف ، وأن يتمهده بالصقل والاصلاح حيناً بعد حين ، وكانوا يتصورون هذه الأسلحة وكأنها كائنات تفيض بالحياة ، سكبوا عليها من نفوسهم شعوراً ووعياً ووصفوها بالتميز ومعرفة العدو والاقدام والحماة ، وما إلى ذلك من أوصاف للفرسان أنفسهم<sup>(١)</sup> .

وكثيراً ما كانت تتحول الوقائع المادية بين الهلالية وغيرهم من الجماعات المعادية لهم إلى ما يسمى في عرفنا الحديث « بالحرب الباردة » وينهض بها غالباً القادرون على التفنن في القول ، كأن يتبارز شاعران بمبارزة الفرسان ، ويعتزل كل منهما بقبيلته ونسبه وأيامه ويهجو عدوه وتكون المنافرة أو المناقضة ، وقد تؤدي هذه أو تلك إذا أفلت الزمام ، إلى يوم مشهود بين الجمعين . وقد تستمر فتصاحب القتال المائل ولا تنقطع بانقطاعه .

وتتسم الجماعة الهلالية بسمة أخرى قد قويت فيها واستقرت منها في مكان الفرائز المتصلة بالأبوة المحافظة على النوع ، أو المعاتلة المحافظة على الذات . ونعني بها الهجرة ، وقد رأينا أنهم كانوا يلتمسون الغيث انتجاعاً للكلاً في مواسمه ويدورون معه حيث دار فأدى ذلك بهم إلى اعتياد النقلة المستمرة . فالجماعة كلها متأهبة أبداً

للرحيل كلما ظهرت بوادر الجذب أو انقطاع الغيث لا يتخلف عنها أحد من الناس أو الأنعام ، لأن تخلفه معناه موته ، ولا تلبث الجماعة أو تربيث لأنها إن فلت تعرضت للهلاك . فتويت بذلك روح الجماعة واشتد سلطانها على جميع الأحاد المنتهين إليها . وتحددت البيوت وخفت مئونها في الحمل والبناء جميعاً ، وعرف كل امرئ عمله إذا دعا الداعي إلى الظعن والانتجاع . وانقسام الجماعة الكبيرة أثناء الرحلة ، كانقسامها أثناء الإقامة إلى عشائر وأحياء قوامها القرابة الأبوية . وهذا الانقسام هو الذي ينظم جميع الشؤون المتصلة بالرحلة من رياسات تتدرج في إصدار الأوامر والنواهي وتلقيها إلى الحراسة وتنظيم وسائلها وأوقاتها ، وتوزيع المئونة بين آحادها ، إلى ترتيب الركب بين القادرين على الدفاع والاغارة ، وغير القادرين عليهم من الشيوخ والنساء والأطفال ، ومكان الأنعام والمتاع . وينبغي أن نلاحظ أن الهجرة الهلالية أو هجرة الأعراب بصفة عامة إجماعية ، وهي تختلف بذلك عن الهجرات الأخرى التي يقوم بها العدد الزائد من السكان عندما يفقد التوازن بين التوالد والانقاج ، كما أنها تختلف عن التوسع يقوم به ممثلون لجماعة من الجماعات . وأدى هذا إلى تآصل حب المنقلة في النفوس ، فما من هلالي يطيق أن يقيم حياته في موضع واحد ولو أكره على ذلك إكراها .

ورسبت هذه الحياة غير المستقرة في نفوسهم أشتاتا من الأحاسيس ، فهم يكادون يتنبأون بالخطر الدافع إلى الانتقال قبل وقوعه ، مثل الطير يتنبأ بالاعصار والسييل ، إلى بصر بالمواضع المجاورة لهم وما يعتورها من تغير . وصلة هذا التغير بنجوعهم وأثره في تصاريقهم . كما أنهم لم ينوا أبداً عن العمل على كشف النجوع الملائمة لهم . وإذا سمعوا بمنازل أكرم من منازلهم رادوها ، وتجسسوا أخبارها ، وتعرفوا إلى أماكن القوة والضعف فيها ، حتى إذا سنحت الفرصة اهتبلوها وأغاروا عليها وقتلوا أهلها وأرغموهم على استضاقهم وأنعامهم وتلبثوا بين ظهرانيهم أمداً

إلى أن يأتيهم باعث جديد على التحول ، فاما أن يعودوا إلى منازلهم الأولى إذا عاودها الغيث ، وإما أن يولوا وجوههم شطر موضع آخر إذا بمدت الشقة وظال الطريق .

ولما اتسمت الجماعة الهلالية وتمددت أقسامها اصطنعت وسائل غير الكلام المأخوذ للتفاهم المتصل بالشئون العامة ، وبخاصة القتال والهجرة . وأبرز هذه الوسائل التطويل المتجاوية ، فقد اصطالحوا بعداد الدقات عليها ونوع هذه الدقات على مختلف التعابير الجماعية من الدعوة إلى اجتماع ، أو الأنداز بغارة ، أو الحث على قتال ، أو الأعداد لهجرة وانتقال .

وتنتقل التجاريب والمعارف في الجماعات الهلالية المتنقلة المحاربة هذه بين الأحماد والأجيال بوسيلتين ، الأولى : التدريب المباشر وذلك فيما يتصل بالشئون العملية كالفرسية واستعمال السلاح والدفاع والاغارة والتأهب للرحيل . والثانية ، التلقين ، وهو يعتمد على الذاكرة لانعدام الكتاتيب أو ندرتهم . ومجموع هذه المعارف والتجاريب هو ما نستطيع أن نسميه بالتراث وهو الذي يحافظ على خصائص الجماعة ومقوماتها العقابية والشهورية ، ويخترن أمجادها وأيامها المشهودة التي تتغنى بها تقوية الروح المعنوية الجماعية . ولما كانت الذاكرة لا تستطيع الأبقاء على كل كلام ليست له صفة بيانية تميزه ، وكان السماع هو الحاسة التي تتلقى هذا الكلام المتصود به إلى التذكر والحفظ ، فقد أصبح من الضروري أن يكون هذا التراث مجهوراً له جرس ورنين ، فهو إما مجموعة من الوصايا المتفرقة المعتمدة على السجع والمقابلة وما إليهما وإما مجموعة من الأشعار المنظومة المقفاة تتلاءم في الاسترسال والتقطيع والتنغيم ، وحاجات الإقامة إلى السمر والافادة وضرورات السفر على ظهور الأبل وصهوات الجياد .

واتصال الجماعات الهلالية بغيرها من الجماعات اتصال حلف ومؤاخاه ، أو اتصال

خصوصية ومعاداة ، يقتضينا أن ننظر في الوسائل التي اصطفتها للإبانة عن ذاتيتها وتمييزها عن غيرها . وليس في اللغة العربية كلمة تطابق مطابقة كاملة ، الكلمة الأوربية Symbol في دلالتها على جمع معين ، أو طبقة اجتماعية معينة ، أو حرفة معينة وما إلى هذا بسبيل . وترجمة هذه العبارة « بالرمز » هنا لا تصيب الغرض المقصود . ذلك لأن الرمز والكتابة وأصراهما ، إنما تقصدان إلى التعبير عن معنى مقنع . ولعل كلمة « شعار » هي أقرب الكلمات إلى المعنى المراد . ولا بد لهذا النظر من استقراء التاريخ العربي العام ، فهو يهدينا أولاً إلى أن النبي صلوات الله عليه ، اتخذ اللواء في مغازيه كما كان الحال قبله عند العرب <sup>(١)</sup> . وكانت شارة المغايرة هي اللون يتعارف به ولا يدل على أى معنى آخر ، فقد ذكر أن المسلمين استعملوا في غزواتهم الأولى البياض . ثم نوعوا وأضافوا إليه السواد تمييزاً للأشخاص ذوى الخطر . ولكن استعمال الأول أكثر ويقول « قون كراصر » <sup>(٢)</sup> : « يظهر أن محمداً استعار العقاب ( النسر ) الروماني لواء لجيوشه » ويظهر أن هذا القول بالنقل عن الرومان فيه مبالغة دفع إليها الاستقراء الناقص للروايات والأخبار .

ولم يرد في كتب التواريخ ما يشير إلى الألوان الخاصة بمختلف القبائل والأحلاف . ولكن مما لا شك فيه أن الاحتفال برفع الألووية وعقدتها للإمارة في الجمع ، لا يخرج عن العصبية البطرقيية التي أشرنا إليها . من ذلك ما أورده أبو حنيفة الدينورى من أن علياً رضى الله عنه « عقد لقيس وعبس وذبيان راية وولى عليهم سعد بن مسعود ابن عمرو الثقفي <sup>(٣)</sup> » . واستمر المدلول اللوئى بعد ذلك ، فاتخذ الأمويون اللون

(١) أمين الخولى : الجنديّة في الإسلام ، ص ٤٥

(٢) Culturgesch des Orients ، فينا ١٨٧٥ — ١٨٧٧ ، ج ١ ص ٨١

(٣) ص ١٤٨

الأبيض في رواية<sup>(١)</sup> والأخضر في رواية أخرى ضعيفة<sup>(٢)</sup>. كما اتخذ العباسيون اللون الأسود في الألوية والطرز والسياب، غير أنهم توسعوا في مدلول اللون، وتجاوزوا به مجرد التمييز بين الجموع، إلى تنويع الواجبات الملقاة على عواتق الأصحاء. أما الفرق والأحزاب والقبائل، فقد كانت ألويتها تختلف باختلاف الألوان، كما تختلف باختلاف ما يكتب عليها. ويهبطنا الطبرى صورة للواء على بن محمد صاحب ثورة الزنج قال إنه «أتى بحريرة... ليتخذها لواء فكتب فيها بحمرة وخضرة: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأهوالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله...» إلى آخر الآية. وكتب اسمه واسم أبيه<sup>(٣)</sup>. ولعل أهم ما صادفنا من النصوص القريبة من العهد الذي ندرسه ما روى عن سلطان تونس وهو «أن له علماً أبيض يسمى العلم المنصور يحمل معه في المواكب... وأن الأعلام التي تحمل معه في المواكب سبعة أعلام. الأوسط أبيض وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر... وأن ذلك غير أعلام القبائل التي تسير معه فلكل قبيلة علم يمتاز به بما عليه من الكتابة. والكتابة مثل لا إله إلا الله. أو الملك لله. وما أشبه ذلك...»<sup>(٤)</sup> وهذا النص قاطع في أن القبائل كانت تتخذ الألوية والأعلام. وأنها لما تكثرت وضاعت الألوان عن تمييزها أصبحت تميز بما يكتب على هذه الأعلام. أما اللون الذي اصطنعتة الهلالية بخاصة، أو القيسية بعامة، والعبارة التي آثرها، فلم نظفر بها فيما بين أيدينا من تصانيف. وكان المظنون أن هذه القبائل اتخذت الهلال شعاراً لها، فقد كانت العشائر والبطون تجتمع عليه. وقد رأينا في الباب الأول أن الصفة الطوطمية لهذه النسبة مفقودة أو تكاد. ولا يزال الباحثون في حاجة إلى تبيان الصلة بين الاسم والمسمى

(١) أمين الخولي: المصدر السابق ص ٥٤

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٣ ص ٢٧٤، ٢٧٥

(٣) الطبرى: ج ٣ ص ١٧٤٨

(٤) القلقشندي: المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣

و بين استعماله علماً على الفرد أو القبيل بين القيسية وغيرهم من العرب ، ثم بين أولئك ومن سبقوهم من البابليين . بل ومجاوزه هذا كله إلى تتبع عبادة القمر في العالم القديم بأسره وليس هناك خطأ أشيع من القول بأن الهلال هو شعار الاسلام . ومن العجيب أن كثيراً من الكتاب المبرزين يقعون فيه . فلحقق أن الهلال قد استعمل قبل ظهور الدولة العثمانية حلية في الآثار . يقول الكاتبين « كروزويل »<sup>(١)</sup> : « نرى رسم الهلال منتشراً في الزخارف الفسيفسائية بقبة الصخرة ( من نهاية القرن الأول الهجري ) بين رسوم الخيل . ويذكر رسمه فيها برسوم الهلال في العصر الساساني . ومن الغريب أننا نجد في قبة الصخرة ( قبل أن يتخذها الاسلام شعاراً بفترة طويلة ) في المواضع التي كان المسيحيون يستعملون فيها رسم الصليب عادة مثل أعلى القبة وأركان العقود وغيرها والواقع أن رسم الهلال كان يستخدم في الزخارف الكلاسيكية ثم هجره المسيحيون إلى رسم الصليب ولكن الساسانيين أقبلوا عليه بعد ذلك كما يتجلى من رسوم ملابس النساء في نقش طاق بستان الساساني . »

ولعل أول ما ورد من ظهور الأعلام في الرايات الاسلامية ما ذكر من وضع الفاطميين الهلال على الرماح ...<sup>(٢)</sup> ومن المفيد أن نورد مثالا لذلك ، قال القلقشندي وهو يصف أعلام الفاطميين « ... وأعلامها اللواءان المعروفان بلواءي الحمد وهما ربحان طويلان ملبسان بأنايب من ذهب إلى حد أسنهما وبأعلامهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين يخرجان لخروج المظلة إلى أميرين معدين لحملها ودونهما ربحان برؤوسهما أهلة من ذهب صامت في كل واحد منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما يحملهما فارسان من صبيان الخصاص

(١) Early Muslim Architecture : K. A. C. Creswell ج ١ ص ١٢٥ و ١٩٦

(٢) أمين الحولي : المصدر السابق ص ٥٧



وإذا انتقلنا إلى الزى فاتفقنا نجد أن الأعراب جميعاً كانوا سوامية في لبس المحيط ، وربما ألقوا رداء على ظهورهم وانزروا يازار<sup>(١)</sup> وهم يتفاوتون في ذلك بتفاوت المراتب الاجتماعية لا بتفاوت العشائر والقبائل ، وكانت الهائم لباس الرأس المألوف عندهم . ولها عندهم أسماء شتى ، وما ندرى أهذه الأسماء مترادفة أو متنوعة . وكان من عادة الفرسان في المواسم والأسواق أن يتقنعوا حتى لا يعرفهم الناس .

وكان بعض السادات منهم يتخذون علامة خاصة بهم تميزهم في الجموع والمواسم . بيد أن هذه العلامة كانت شخصية وليست قومية أو قبلية . وكانت الهائم تتفاوت في الحجم تبعاً لمقام صاحبها في جماعته . ويستخلص مما رواه القلقشندي<sup>(٢)</sup> . أن الأشياخ والعمامة كانوا على زى واحد لا يمتاز بعضهم على بعض إلا « بشيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صفر الهائم وضيق القماش » واتخاذ اللون في الهائم كان أقل شيوعاً منه في الألوية ، فكثيراً ما كان ينسحب الشعار اللوني من اللواء إلى الأزياء فيصطنع السواد للدلالة على أن الدولة قد سارت إلى العباسيين وهكذا ، كما فعل المعز بن باديس . والاستئثار بالخضرة في العمامة إنما قصد به إلى التشریف بالقول بأن صاحبها من نسل النبي صلى الله عليه وسلم . أما أن القبيلة كلها ، هلالية أو غير هلالية ، قد اتخذت لوناً معيناً في العمامة أو ما دونها فلم يرد فيه نص يؤيده أو ينكره .

وإذن فقد كان الهلالية يتعارفون فيما بينهم ويعرفهم غيرهم بالصورة العامة والجمع الحاشد والمغايرة المطلقة للسكان المستقرين وبما كانوا يأتونه من الفعالي التي تبررها شريعة البدو ، وتراها شرائع المدينة سرقة أو اغتيالاً أو تخريباً . ولسنا نظن أن هناك ما يعبر عن خصوصيتهم بين سائر الأقوام ، إلا ما أثر عنهم من قول أو فعل تلخصه ملحمتهم المشهورة في العالم العربي بأسره . وهي التي نحاول جاهدين أن نعرض لها بالدرس والتحليل .

(١) الألوسي ؛ المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٦

(٢) القلقشندي : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٢ ، ١٤٣